.. قاتلنا فانتصرنا

موجز لبطولات الجيش المصري في حرب رمضان وتحية عطرة للشهداء

مقدمة

لم تكن حرب رمضان مجرد حرب عسكرية انتصر فيها الجيش المصري على القوات الصهيونية. إنها أكبر من مجرد حرب وأكثر من مجرد انتصار ولا يعرف أهمية تلك الحرب – وهذا الانتصار إلا من عاش تلك الفترة وما قبلها وعانى من عشرات المشاعر والتحولات وخاصة هذا الجيل الذي كان في بداية وعيه السياسي بما حوله وبما يعيشه. وكنت واحدًا من هؤلاء.

وأذكر أنني كنت في عام ١٩٧١ في بداية المرحلة الثانوية – وكيف أنني كنت أشعر بيأس قاتل وإحساس بالضياع عقب سلسلة من المقالات كتبها الصحفي محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام قال فيها إن حالة الاسترخاء العسكري «اللا سلم واللا حرب» سوف تستمر طويلاً لأن تلك الحالة تتفق مع مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية وكل من هب ودب – وإن الجيش المصري غير قادر نظريًا وعمليًا على العبور، وأعتقد أن حالة الإحباط المرير لم تكن من نصيبي وحدي بل كانت من نصيب كل مصري.

وعلى الجانب الآخر. في ذلك اليوم من رمضان عندما انطلقت القوات الصائمة لتعبر قناة السويس وتلتحم في قتال مباشر مع القوات اليهودية – كان تيار من الدم الجديد يسري في عروقنا وقلوبنا – وكيف ارتفع اهتمامنا بالأحداث إلى درجة تفوق

الوصف - وكيف كنا نتابع أنباء المعارك لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة عبر موجات كل الإذاعات التي يستطيع الراديو التقاطها. ليس هذا فحسب - بل كان هناك تحليلان يوميان طويلان عن أنباء المعارك كنا نستمع إليهما في المسجد عقب صلاة العشاء وصلاة الفجر يوميًا - وهما الصلاتان اللتان يكتظ خلالهما المسجد بالمصلين في شهر رمضان الكريم.

وأذكر أنه منذ اليوم الأول للمعركة - كان الشعب - كل الشعب - على قدر هائل من المسئولية والمشاركة والإيجابية. وكيف أننا ذهبنا في يوم ١١ رمضان وهو اليوم الثاني للمعركة إلى الوحدة الصحية بقريتنا دنديط مركز ميت غمر - دقهلية نطلب إلى طبيب الوحدة أن يأخذ منا دماءً للجرحى والمصابين - وكيف أنه اكتفى بأن سجل أسماءنا وطلب الانصراف حيث إن إمكانيات تخزين الدم ليست متوفرة لديه وأنه عند الحاجة سوف يتصل بنا - وكيف أنه قد تعجب لأن القافلة كانت كبيرة جدًا بحيث إنها تضم أبناء القرية جميعًا رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأذكر أننا جلسنا في فناء الوحدة الصحية صائحين بضرورة السماح لنا بالتبرع بالدم وأننا لن ننصرف دون ذلك - وكيف أن بعضنا قام فينا خطيبًا وأرشدنا إلى أن المشاركة في المعركة ليست قاصرة على التبرع بالدم، وأن هناك وسائل أخرى - وكيف أننا اتفقنا على تشكيل مجموعة عمل تنطلق من المساجد وتقوم بزيارة أهالي الجنود وتقديم أي خدمة لهم - كما أننا قررنا أن نجمع من أهالي القرية الخبز والسمن والسكر المعد لعمل كعك العيد وإرساله إلى الجنود في جبهة القتال.

***

استطاع المقاتل المصري في حرب رمضان - برغم ميل التوازن العسكري لصالح العدو - استطاع أن يحقق نصرًا تاريخيًا وأن ينجز إنجازات عسكرية فذة على كل مستوى - واستطاع الشعب المصري أن يحقق تفاعلاً ومشاركة هائلة. وكل هذا يثبت أن الإنسان المصري أصيل وكفء - وأنه قادر دائمًا على تحقيق الانتصار في كل مجال. إن العيب دائمًا لم يكن في هذا الإنسان - بل في القوى التي ضربت حصارًا طويلاً حوله بهدف حرمانه من المشاركة في بناء حياته والاكتفاء بدور المتفرج. بل

إننا نؤكد أن تلك القوى مازالت تعمل فينا فعل الإثم وتهدف إلى إسقاط ثقة الشعب في نفسه وسحب كل ما من شأنه أن يحقق له تلك الثقة وإيهام الشعب بأنه متخلف وغبي وغير قادر بل واستئصال كل إنسان متماسك وجريء وشجاع ويفكر إما بالقهر والذل أو الاعتقال أو الرشوة – «الترهيب والترغيب».

إن حرب رمضان والمشاركة الشعبية فيها وذلك التلاحم الفذ بين كل قطاعات الشعب المصري والجيش المصري لو قدر لآثارها النفسية أن تعمل عملها لكان واقعنا الآن مختلفًا – ولكن القوى المتربصة بنا عملت بلا كلل ولا ملل على تآكل تلك الآثار وسحبها من وعي أمتنا وتغييب جوانبها الإيجابية وذلك لحساب أعدائنا الذي لا يريدون لنا خيرًا ولا تقدمًا ولا رقيا.

إننا في هذا البحث الموجز سنقدم ملامح من معجزات الجيش المصري الفذ والشعب المصري الأصيل – دون أن نتطرق إلى الإدارة السياسية لآثار المعارك وإن كان لنا رأي مخالف لما هو سائد أو ساد بشأنها وذلك لأن هذا ليس داخلاً في الموضع في هذا البحث ويمكن أن يكون موضوعًا لبحث مستقل، إننا هنا سنكتفي بالإجابة على سؤال هام – لماذا انتصرنا في رمضان – وما هي العوامل الموضوعية التي أدت إلى هذا الإنجاز الرائع – وهل يصلح الإنسان المصري بتركيبته الخاصة أن يخوض معاركه في كافة المجالات وأن ينتصر فيها.

***

إننا أيضًا لن نتطرق إلى موضوعات أخرى جانبية – ليس لعدم أهميتها ولكن لأن لها أبحاثا مستقلة ربما نعود إليها يومًا – مثل موضوعات الخلاف حول طريقة معالجة الثغرة أو قبول وقف إطلاق النار أو هل كانت المعركة معركة تحرير أم تحريك – وغيرها من القضايا المرتبطة بالمفاوضات التي أعقبت الحرب.

الجيش المظلوم

والأصح أن نقول الشعب المظلوم – فليس الجيش وحده الذي ظلم ولكن الشعب كله – فمن ناحية فالجيش جزء من الشعب وما يمس هذا يمس ذاك ومن

ناحية ثانية فالهزائم أو الانتصارات لا تمس الجيش وحده ولكنها تمس الشعب كله، بل تمس كل الأمة الإسلامية لاعتبارات كثيرة. ومن ناحية ثالثة فإن السياسة المتبعة والتي أدت إلى الهزيمة كانت موجهة إلى الشعب كله وليس الجيش وحده.

والآن لنصل إلى سؤال هام – هل انتصار رمضان هو القاعدة وغيره الاستثناء – أم العكس صحيح وخاصة أن الهزائم كانت ثلاثا في ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ والانتصار كان وحيدًا في ١٩٧٣.

وفي الواقع فإن الإجابة على السؤال تفتح عددًا من القضايا الهامة – بل وتعري أكاذيب المدرسة الاستعمارية.

فالمدرسة الاستعمارية تروج دائمًا بأنه لا قبل لنا بمحاربة إسرائيل ولا الانتصار عليها – لسبب بسيط هو أن إسرائيل جزء من الحضارة الغربية المتفوقة علينا تقنيًا وعسكريًا. وهؤلاء يحسبون النصر والهزيمة بالعدد والعدة مخرجين من حساباتهم أن الله سبحانه جعل الإنسان هو الأقوى دائمًا، وأمد عباده المؤمنين بالمدد من عنده. إن المدرسة الإسلامية ترى أن الشعب المصري والجيش المصري والإنسان المصري قادر على سحق العدوان والانتصار على اليهود طالما استخدم طاقاته الكامنة والروحية والمادية وأنه في أي مرة يلتحم هذا الإنسان في قتال مع العدو فإنه يثبت ذاته وينتصر.

وعلى حين ترى المدرسة الاستعمارية أن حرب ٧٣ كان الانتصار فيها للجندي المصري لأسباب سياسية دولية وعالمية وتكتيكية أي أنه كان بسبب الظروف الدولية فإننا نرى أن الانتصار كان لأسباب ذاتية محضة دون إغفال أهمية العوامل الأخرى وفي الحقيقة فإن الإنسان المصري والجندي المصري لم يهزم قط، ولكن الذي هزم هي القيادة السياسية الجبانة أو الخائنة أو المترددة أو الفاسدة، ففي حرب ١٩٤٨ لم يهزم الجندي المصري أو العربي ولكن هزم الملوك والرؤساء الذي تخبطوا في قرارتهم أو خان بعضهم أو أمدوا الجيوش بالأسلحة الفاسدة إلى غيره من الأسباب وقبلوا في النهاية بالهدنة!!.

وفي حرب ١٩٥٦ لم يسمح للإنسان المصري بمواجهة إسرائيل في سيناء بل صدر قرار بالانسحاب بحجة مواجهة الجيش الإنجليزي والفرنسي في القناة.

وإذا كان البعض قد وجد الحجة التي يتذرع بها تبريرًا للانسحاب في عام ١٩٥٦ – فإن وقائع الانسحاب في حرب ١٩٦٧ تقطع بوجود خيانة كبيرة في قمة السلطة وفي أقل الأحوال إهمالاً منقطع النظير.

إننا سندرس بشيء من التفصيل وقائع حرب ١٩٦٧ لنؤكد أن الجيش المصري مظلوم مظلوم مظلوم.

إن هزيمة ١٩٦٧ كانت بسبب الخيانة أو الإهمال في قمة السلطة – تلك السلطة التي اتسمت بالفساد حتى أخمص قدميها أو تلك التي اتسمت بالجهل أو الخيانة أو الاستبداد.

كانت تلك السلطة قد استطاعت عبر ممارسات طويلة أن تكبل حركة الشعب كله. وأن تصرفه تمامًا عن المشاركة في بناء حياته السياسية والاجتماعية. وراحت تردد أن الزعيم ملهم – وأنه لا داعي لأي من الشعب أن يفكر أو يقاتل أو يعمل. ما عليه إلا أن ينتظر لينفذ أوامر الزعيم الملهم، وويل كل الويل لمن تسول له نفسه بالتفكير – فالتفكير في عرف تلك السلطة جريمة كبرى جزاؤها القتل أو السجن أو التعذيب.

كانت تلك السلطة قد مارست أبشع أساليب القهر والتعذيب بحق الإنسان المصري في محاولة لإسقاط ثقته بنفسه – والأدهى من ذلك أن تلك القيادة قد ورطت بعض قطاعات الجيش في المشاركة في قهر الشعب حتى تحقق الانفصام بين الطرفين. وكان على رأس قيادة الجيش مجموعة المشير عامر المعروفة بفسادها وانحرافها المالي والأخلاقي – وهكذا هيئوا الظروف كلها لإلحاق الهزيمة بأمتنا – كانت أمة وراء الأسوار، وجيشا ذا قيادة منحرفة وبرغم كل هذا كانوا يدركون أن الجيش والشعب بداخله ثقة لا حد لها وخبرة تاريخية هائلة وخافوا إن تركوا هذا الجيش ليقاتل فلربما ينتصر وهكذا أصدروا القرار الخائن بالانسحاب.

إننا أمام مجموعة من الحقائق التي اتفق عليها الجميع لندرس ماذا حدث في ١٩٦٧.

- صدر قرار من القيادة السياسية «عبد الناصر» بمنع التدريب العسكري لطلاب المدارس والجامعات!!

- كانت إسرائيل قد حصلت على أعظم كسب لها وهو إنهاء الحصار المصري عليها في البحر الأحمر بمرور الملاحة الإسرائيلية والتجارة الإسرائيلية في مضايق تيران بمقتضى تسوية فبراير ١٩٥٧ في أعقاب حرب ١٩٥٦ وهي التسوية التي لم تعرف الجماهير المصرية

- أو العربية عنها شيئًا.

- في ١٣ مايو ١٩٦٧ أبلغ وزير الدفاع السوري حافظ الأسد المشير عبد الحكيم عامر رئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية عن حشود عسكرية إسرائيلية كثيفة على الحدود السورية على جبهتين في الشمال والجنوب من بحيرة طبرية.

ومن المعروف الآن في ضوء الوثائق أن قصة الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا كان مصدرها السوفييت، قصة كاذبة - وقد عرفت القيادة المصرية في الوقت المناسب بذلك - إلا أنها استمرت في تصعيد الموقف.

- في ١٥ مايو ١٩٦٧ رفعت حالة الطوارئ في الأراضي المصرية إلى الدرجة القصوى. وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر أنه أصدر أوامره بإرسال القوات المصرية إلى سيناء. وفي أثناء تقدم القوات المصرية في سيناء يوم ١٦ مايو طلب رئيس الأركان المصري الفريق محمد فوزي من الجنرال الهندي ريكي سحب القوات الدولية من خط الهدنة على الحدود الشرقية ولكن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة في ذلك الحين أصر على أن أي طلب لإبعاد القوات الدولية من الحدود الدولية يقتضي طلب إخلاء كامل لجميع القوات الدولية من غزة ومن سيناء، فردت مصر بطلب سحب القوات الدولية كلها يوم ١٨ مايو وفي اليوم التالي وافق يوثانت على الانسحاب وفي يوم ٢٠

مايو تم سحب هذه القوات من جميع مواقعها في قطاع غزه وسيناء وفي اليوم التالي ٢١ مايو كانت القوات المصرية تحتل مواقعها في شرم الشيخ – وفي يوم ٢٢ مايو أعلن عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وبذلك أصبحت الحرب أمرًا محتومًا.

إذن فإن كل شيء كان يقود حتمًا إلى حرب – فلماذا كان التقصير والإهمال من القيادة السياسية ما دام الجميع يعرف أن الحرب محتومة – ربما يقول قائل إن عبد الناصر لم يكن ينوي الدخول في حرب – وإنه كان يفعل ما يفعل بهدف الضغط وتوريط الأطراف وخاصة الاتحاد السوفيتي ليس إلا – ولكن هل هذا منطق؟ – وكيف يتلاعب عبد الناصر بمصير أمة وجيش ما دام غير مستعد للحرب. وإذا كان هذا منطقه فهو منطق مضحك – فمن يدخل إلى منطقة الحرب الحتمية دون استعداد هو خائن لأمته ولا شك – وإن كانت الأمور قد قادته رغم أنفه إلى ذلك فهو أحمق. وفي الحالتين لا ذنب للجيش المصري في شيء.

وربما يقول آخر إن السوفييت استدرجوا عبد الناصر وإن قصة الحشود الإسرائيلية على الجبهة السورية لم تكن صحيحة. ولكن من يُستدرج لا يصلح أن يكون زعيمًا. فضلاً عن أن القيادة المصرية كما هو ثابت قد علمت بأن قصة الحشود كانت زائفة في الوقت المناسب ولكنها اختارت المضي قدمًا في التصعيد ومعنى هذا أنها كانت تريد الدخول في الحرب وأن الأمر كله كان مجرد لعب غير مسئول بمصير أمة وجيش.

إن الأقرب إلى الفهم أن عبد الناصر كان يعرف أنه غير قادر على الحرب ومع ذلك اختار التصعيد حتى يدمر القوات المسلحة المصرية وذلك في إطار صراعه على السلطة مع المشير عامر وكانت الأمة هي الضحية والجيش هو المذبوح على رمال سيناء.

من الثابت أن رأي العسكريين المصريين استقر على عدم ضرورة إرسال قوات مصرية إلى شرم الشيخ تفاديًا لاتخاذ قرار بإغلاق خليج العقبة يجعل الحرب بين مصر وإسرائيل محتومة – ولكن عبد الناصر تجاهل هذا القرار وأصدر قرارًا بإرسال

القوات المصرية إلى شرم الشيخ كما استصدر قرارًا من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي في جلسة خاصة بإغلاق خليج العقبة وتصعيد الموقف وطلب سحب القوات الدولية.

وقد ظهر على أثر ذلك القرار رأي في القيادة العسكرية المصرية يرى توجيه ضربة جوية لإسرائيل لانتزاع السيطرة منها ولكن عبد الناصر عارض هذا الرأي على أساس أنه يعرض مصر لمواجهة مع الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه طلب إلى القيادة العسكرية الاستعداد لتلقي ضربة جو إسرائيلية، وكان عبد الناصر يعلم علم اليقين أن إسرائيل تستعد للهجوم وأن احتمالات الحرب تتصاعد من ٥٠٪ عند بحث موضوع غلق خليج العقبة يوم ٢٢ مايو إلى ٨٠٪ عند اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي إلى ١٠٠٪ عندما أعلن عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة.

- وفقًا لرواية صالح مرسي - فإن شبكة مصرية تعمل داخل إسرائيل كانت قد استطاعت أن تحصل على الخطة الإسرائيلية لحرب ١٩٦٧ كاملة وخاصة عملية ضرب المطارات - وأن تلك الخطة قد وصلت إلى الرئيس

- عبد الناصر - إلا إنها لم يلتفت إليها وأهملت. ومعنى هذا أن الإهمال كان قد وصل إلى مستوى غير مقبول أو هناك خيانة متعمدة من جانب عبد الناصر.

إن وضع تلك الحقائق جنبًا إلى جنب يوضح وبما لا يدع مجالاً للشك أن عبد الناصر اختار التصعيد واختار الحرب مخالفًا رأي القيادة العسكرية وأنه رفض توجيه الضربة الأولى - واختار أن نتلقى نحن تلك الضربة وأهمل عن عمد أو بإهمال تقرير الشبكة المصرية عن الخطة الإسرائيلية ومعنى هذا كله ببساطة أنه وفقًا للظروف الموضوعية أنه اختار أن يتم تدمير الجيش المصري وإلحاق الهزيمة به - وقد يكون التفسير أن ذلك تم في إطار رغبة عبد الناصر في إزاحة المشير عامر الذي أمسك بتلابيب الجيش المصري. حيث إن الهزيمة سوف تؤدي حتمًا إلى نهاية المشير عامر - وقد يقول رأي آخر إن عبد الناصر فعل ذلك عن عمد لأنه كان ضالعًا في الخيانة والعمالة للأمريكان - راجع جلال كشك - «ثورة يوليو الأمريكية». وأيًا

كان التفسير فإن حجم الكارثة التي لحقت بأمتنا كان مروعًا والمسئولية تقع على عاتق عبد الناصر والمشير معًا ولا ذنب للجيش المصري في شيء.

- على الرغم من علم القيادة السياسية والعسكرية بنية إسرائيل في توجيه ضربة جوية وشيكة - إلا أن الضربة الجوية الإسرائيلية وقعت بينما كانت هيئة القيادة العامة في الجو في الطريق إلى أحد المطارات الحربية مما أدى إلى عدم اعتراض وسائل الدفاع الجوي المصري للطائرات الإسرائيلية بفاعلية مما أدى إلى تدمير ٨٥ - ٩٥٪ من الطائرات المصرية المقاتلة والقاذفة على الأرض فضلاً عن تخريب معظم المطارات المصرية!!.

وهذا يؤكد أن قوات الدفاع الجوي لم تكن مقصرة - فقد شلت يدها عن العمل بسبب وجود هيئة القيادة العامة في الجو - الأمر الذي يبرئ ساحة الجيش ويؤكد وجود خيانة أو إهمال في قمة السلطة. فكيف تكون طائرة هيئة القيادة العامة في الجو في وقت يعرف فيه الجميع أن إسرائيل على وشك توجيه ضربة جوية!!.

- في مساء ٦ يونيو ١٩٦٧ صدر قرار بالانسحاب من كامل سيناء في حين أن الأمور لم تكن تدعو إلى اليأس في أعقاب الضربة الجوية الإسرائيلية لأن الطيارين المصريين لم تكن قد نزلت بهم خسارة تذكر، وكان يمكن تدبير الطائرات من الدول الصديقة - كما أن أوضاع القوات البرية في سيناء لم تكن تبرر قرار الانسحاب - وقد أدى التخبط في القرارات إلى كارثة مروعة حيث أصبحت القوات المصرية صيدًا سهلاً للطيران الصهيوني حتى بلغت الخسائر نحو ٩٠٪ من الأسلحة والمعدات، وكان قرار الانسحاب قد اتخذ بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر دون الرجوع إلى رأي هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

وهكذا فإن ملابسات حرب ١٩٦٧ تؤكد أنه لم يكن للمقاتل المصري ذنب فيما حدث ولم يكن الجيش المصري إلا ضحية عبد الناصر وعامر.

***

أي أسى يشعر به المرء تجاه ما حدث في ١٩٦٧، وكيف مارس جنود اليهود

إذلالا بحق جيشنا وأمتنا لم يكن لهما يد فيه. إن الإنسان يشعر بقدر هائل من المرارة تجاه هؤلاء الذين تاهوا في سيناء أو هؤلاء الذين أصبحوا طعامًا للنابالم أو هؤلاء الذين تورمت أقدامهم من المشي، وهم يصلون إلى مشارف القناة أو مدن محافظة الشرقية وما حولها وملايين المهجرين من سكان منطقة القناة الذين اتخذوا العراء مأوى لهم نتيجة أخطاء عبد الناصر وعامر أو خيانتهما أو خيانة أحدهما.

حجم الإنجاز

لن نستطيع أن نفهم حجم الإنجاز الذي قام به الجيش المصري في حرب رمضان ما لم نضع في اعتبارنا حجم تسليح الطرفين – والتحصينات الهائلة التي استطاع الجندي المصري أن يتغلب عليها.

عقب حرب ١٩٦٧ المشئومة والتي عرفنا أن الجيش المصري والإنسان المصري لم يكن لهما ذنب فيما حدث فيها، انطلقت أبواق الاستعمار في الخارج والداخل تحاول استئصال ثقة الإنسان المصري في نفسه، وتحاول إيهامه بأنه إنسان متخلف وغير عصري ولا يصلح للقتال؛ كانت الحملة من القوة والشراسة والخبث بحيث إن خطرها كان محدقًا – ولكن الإنسان المصري كان يستلهم وجدانه ويصبر ويتماسك.

إن أول أهداف الاستعمار دائمًا كانت الإنسان، كانت المخططات الاستعمارية التي نفذتها أبواق الاستعمار تعمل منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ – حينما اكتشف المستعمر أن هناك مصادر للقوة بين أمتنا ستظل عائقًا أمام تحقيق أهداف الاستعمار – كان عنصر الإيمان والثقة بالله تعالى والتمسك بقيادة العلماء المجاهدين، واستلهام روح الإسلام وخاصة الصدر الأول منه من العوامل الهامة التي تحطمت عليها الحملة الفرنسية وبعدها حملة فريزر ١٨٠٧م – ومن يومها والاستعمار وتلامذته من أبناء المدرسة الاستعمارية يعملون ليل نهار وفق مخطط محدد لفصم ذلك الإنسان عن نفسه، وعن دينه، وعن وجدانه، وكذلك عزله باستمرار عن طريق الحكم الشمولي والديكتاتوري، ثم الترويج لعدم

صلاحية هذا الإنسان. وكانت حرب ١٩٦٧ فرصة هائلة ومادة خصبة لتلك المدرسة الاستعمارية. كان الإنسان المصري قد عانى كثيرًا من العزلة والتعذيب والإذلال على يد نظام عبد الناصر وها هو يتعرض عقب الحرب إلى عملية نفسية معقدة تستهدف إسقاط ثقة هذا الإنسان بنفسه نهائيًا.

كان الإعلام الإسرائيلي والغربي وبعض المرتزقة من العرب والمصريين يساهمون في هذا الأمر بلا تقاعس. ولم يتجرأ أحد على وضع التصور الصحيح لحرب ١٩٦٧ وملابساتها وفضح ما حدث فيها. وبدلاً من الاعتراف بالإهمال أو الخيانة في قمة السلطة وتحميل القيادة السياسية نتائج أعمالها وبالتالي تبرئة ساحة رجال الجيش - راح ذلك الإعلام يقدم صورة عكسية على طول الخط.

كانت الصورة التي رسمها الغرب والإعلام الموالي له كالتالي: إسرائيل دولة عظمى - إسرائيل لا تهزم - الجيش الإسرائيلي لا يقهر - العرب غير قادرين على الحرب - الجندي المصري لا يصلح للقتال - لن نستطيع العبور إلا بقنبلة ذرية، سيتم تدمير الجيش المصري بكامله إذا حاول العبور.

الجنرال موشى ديان - وزير الحرب المنتصر في ١٩٦٧ يقول أمام مؤتمر عقد في إسرائيل في يونيه ٧٣ «طالما أن لنا جنودًا إسرائيليين، وأن قناة السويس هي حدودنا العسكرية، وأن العرب هم أعداؤنا فإن كل شيء على ما يرام».

الجنرال أريل شارون - ٢٠ يوليو ١٩٧٣ - على صفحات جريدة معاريف الإسرائيلية «إن إسرائيل الآن قوة عسكرية عظمى - فأي دولة أوروبية أضعف منها عسكريًا»، وأضاف ذلك الجنرال «إنني أرى أنه ليس هناك أي هدف عسكري أو مدني من الخرطوم حتى بغداد والجزائر بما في ذلك ليبيا - إلا ويستطيع جيش الدفاع الإسرائيلي غزوه في أسبوع واحد».

سأل أحد الصحفيين جنرالاً إسرائيليا «ماذا يحدث لو حاول المصريون عبور القناة - فقهقه الجنرال وأخذ يدق بيده على فخذيه ثم قال: «إنني بمفردي وبمدفع هاون عيار ٨١ أستطيع أن أوقف عبورهم».

وعلى الجانب الغربي والعالمي – أصدر وزير المالية الهولندي أمرًا إلى دار سك النقود بأن تبادر بسك ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية تكون صورة موشي ديان «بالرباط على عينه اليسرى» فوق وجهها الأول وتكون النجمة السداسية نجمة صهيون على وجهها الثاني.

ولقد صدرت هذه الميداليات بالفعل وسرعان ما تحولت إلى موضة انتقلت من هولندا إلى أوربا الغربية.

وفي سلسلة من التحقيقات التي نشرتها صحيفة الديلي تلجراف عن جيش إسرائيل الأسطوري قال المحرر العسكري للصحيفة «إن حرب الأيام الستة. يجب أن تكون البوصلة الهادية لكل العسكريين الغربيين وغير الغربيين. وكل المسئولين في الأكاديميات العسكرية في العالم».

لم تقتصر تلك الحملة على الإعلام الإسرائيلي ولا الإعلام الغربي بل هناك في مصر ذاتها والعالم العربي من تلاميذ المدرسة الاستعمارية من راح يردد هذا الكلام وأكثر منه وسوف نكتفي بتلك المقالة الشهيرة التي كتبها الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتها تحت عنوان «تحية إلى الرجال» قال فيها إن العبور مستحيل – وإن جيش إسرائيل لا يقهر – وإن العبور سوف يكون مذبحة حقيقية للجيش المصري وأسهب فيها في وصف قوة العدو.

***

وعلى الجانب الآخر – كانت الحركة الإسلامية – وعلماء الدين الشرفاء يتصدون تحت السطح وفي عمق المجتمع المصري لتلك الحملة وكانوا دائمًا يرددون أن الإنسان المسلم بخير وأنه قادر على تحقيق النصر – وأن زوال إسرائيل هي حتمية قرآنية – وكانوا يوزعون كتيبات تحتوي على الآيات والأحاديث التي تؤكد فناء إسرائيل وأنها إلى زوال – وأن الجندي الصهيوني جندي جبان لا يقاتل

إلا من وراء ستر. وكان هؤلاء المجاهدون يعملون تحت السطح برغم مطاردات البوليس لهم وبرغم غياب الكثير من الرجال في السجون والمعتقلات،

وكانوا يؤكدون دائمًا أن

ما حدث في ١٩٦٧ لم يكن إلا بسبب الخيانة والإهمال في قمة السلطة وأن الجيش المصري مظلوم وأنه إذا قدر لـه الاشـتباك في قتـال حقيقـي مـع العـدو فـإن قدراتـه وكفاءته سوف يشهد لهما العالم – كما كانوا يؤكدون أن الإنسان المـؤمن أقـوى مـن كل الأسلحة وأن الحسابات العسكرية لا تكون بالمعدات ولكن بـالإرادة والإيمـان والتصميم والعزم.

***

كان من ضمن الحملة الإعلامية التي شنتها القوى الاستعمارية على أمتنا أن هناك تفوقًا عسكريًا إسرائيليًا هائلاً – ورتبت تلك القوى على هذه المقدمة نتيجة تقول إنـه ما دام هناك تفوقًا عسكريًا إسرائيليًا هائلاً – فإنه لا أمل في القتال أو التحرير أو النصر – خاصة وأن ذلك التفوق مرشح للاتساع وليس العكس.

أما المدرسة الإسلامية – فكانت تقول نعم هناك تفوق عسكري إسـرائيلي هائـل بل وخطير وهو مرشح للاتساع – ولكن لدينا سلاحًا فتاكًا وهو الإنسـان المـؤمن – صاحب الإرادة. والعزيمة والتصميم – وإن الإنسان المؤمن أقوى من كل الأسـلحة – التقليدية والذريـة والإليكترونيـة – وإن المقاتـل المصـري قـادر بـأدوات بسـيطة ومتاحة على تحقيق النصر مهما كانت قوة أسلحة العدو ومعداته.

ولا شك أن انتصار رمضان برغم ذلـك التفـوق الرهيـب في السـلاح الإسـرائيلي يؤكد نظرية المدرسة الإسلامية – ويؤكـد أن حجـم الإنجـاز الـذي حققـه المقاتـل المصري كان هائلاً.

والآن لنحاول أن نقترب من الصورة – لنرى كم كانت المهمة صـعبة بـل وشـبه مستحيلة وذلك بالاستناد إلى الحسابات العادية – ولنـرى كـم كـان سـلاح الإيمـان والإرادة فعالاً إلى أي مدى حيث حول تلك المهمة المستحيلة إلى مهمـة ممكنـة بـل وحقيقية.

– في سبتمبر من عام ١٩٧٣ قال الخبير العالمي «هو لبروك» في مجلـة السياسـة

الخارجية الأمريكية التي يعمل أيضًا رئيسًا لتحريرها:

«إن إسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية بمثل هذا التفوق – وبعد انقضاء ست سنوات على حرب الأيام الستة فإن نشوب حرب صريحة بين إسرائيل وجيرانها العرب يبدو أقل احتمالاً مما كانت عليه في أي وقت من الأوقات».

– في شهر أغسطس ١٩٧٣ صدر التحليل الأخير للميزان العسكري عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية بلندن وقد جاء في هذا التحليل أن التفوق الجوي الإسرائيلي قد تدعم بدرجة كبيرة وأنه من دواعي فخر إسرائيل أن لديها أفضل الطيارين في العالم».

– في أبريل ١٩٧٣ زار كبير الخبراء السوفييت الجنرال «لاشنكوف» مصر وفي معرض تعليقه على استحالة العبور – من وجهة نظره طبعًا – قال الجنرال لاشنكوف للواء سعد مأمون «أنكم تفكرون في الحرب بأساليب عام ١٩١٤ قبل أن تخترع الدبابات» وأضاف «وهل تتصور يا جنرال أن المقاتل الفرد في الحرب الحديثة يستطيع أن يتصدى لدبابة؟ إن دبابات إسرائيل أمامكم ولن تستطيعون مقاومتها».

– وقال جنرال سوفيتي آخر للمشير أحمد إسماعيل قبل الحرب بشهور مشيرًا إلى الساتر الترابي المرتفع «إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية لكي تتغلبوا على هذه المشكلة!!».

والآن لنصل إلى العقبات والتحديات والتحصينات التي كان على المقاتل المصري أن يتغلب عليها.

أخطر مانع مائي في التاريخ:

عرف التاريخ العسكري كيف اضطرت بعض الجيوش إلى عبور موانع مائية ولكن هذا التاريخ العسكري لم يعرف مانعًا يصل في خطورته إلى ما وصلت إليه قناة السويس للأسباب الآتية:

- أن جوانب القناة لا تنحدر بشكل تدريجي كما هو معروف بالنسبة للأنهار والقنوات العادية – وإنما تقف جوانبها بشكل رأسي تقريبًا وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد – بل إن هذه الجوانب أو الشواطئ مكسوة بالدبش والأسمنت علاوة على ألواح وشرائح الصلب على جانبي القاع لتقويتها ولتحول دون انهيار الجانبين وهي بهذا الشكل تمنع نزول وصعود المركبات البرمائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة تتطلب أعمالاً خاصة.

- على حافتي القناة ينهض ساتران ترابيان هائلان يصل ارتفاعهما إلى ٢٠ مترًا – الساتر الذي أقامته القوات المصرية على الضفة الغربية والذي يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه قبل عبور القناة، ثم الساتر الذي أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية «والذي يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه بعد عبور القناة».

- عرض القناة الذي يتراوح بين ١٨٠، ٢٢٠ مترًا لا يسمح للقوات بالمناورة والانتشار أثناء العبور بل إنه يتسبب في الازدحام والكثافة مما يجعل القوات هدفًا سهلاً لضربات العدو.

- لا يوجد في القناة مكان ضحل أو مخاضة كما يقول العسكريون، وأهمية هذه المخاضة تتمثل في احتمال أن يضطر المقاتلون إلى الخوض في المياه على أقدامهم وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم ليس هذا فقط بل إنها تعتبر من أعمق الموانع المائية إذ يصل عمقها إلى ١٨ مترًا، كما أن سطح الماء ينخفض عن مستوى حافة الشواطئ بحوالي ٤ أمتار الأمر الذي يحتم تكسير وتسوية حافة الشاطئين لكي يتيسر رسو وسائل العبور المختلفة.

- التيار المائي في قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر بل من ساعة إلى أخرى وهذا يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لتثبيت رءوس كباري العبور.

نظرا لأن تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر فإن المد والجزر فيها يمثلان مشكلة أخرى إذ يتغير مستوى مياه القناة ٤ مرات خلال اليوم الواحد ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جذر حوالي ٦٠ سم في الشمال ويتزايد إلى مترين قرب

السويس.

الساتر الترابي:

- أقام الإسرائيليون ساترًا ترابيًا عملاقا على طول الضفة الشرقية للقناة. وظلوا يزيدون في ارتفاعه حتى وصل إلى ٢٠ مترًا.

- قام الإسرائيليون بزراعة جوانبه بحقول من الألغام بالغة الكثافة.

- أنشئ فوق قمته الترابية الأطراف مرابض للدبابات المدرعة الإسرائيلية بفاصل يتراوح بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر ومعنى ذلك أن كل كيلو متر واحد يشمل ٨ مرابض ولو قمنا بعملية حسابية بسيطة لوجدنا أن خط المواجهة الذي يصل إلى ١٧٠ كيلومترًا يحتوي على ١٣٦٠ مربضًا للدبابات والمدرعات ولنا أن نتصور كمية النيران التي تنهال من هذه المرابض على القوات التي تستعد للعبور - كما أن هذه المرابض تم إعدادها بحيث تقوم بإنتاج نيران جانبية مؤثرة توجه إلى القوات أثناء العبور.

- حتى لو جردنا هذا الساتر الترابي من كل هذه التجهيزات الكفيلة بوأد عملية العبور في مهدها، فإن مجرد تسلقه بارتفاعه الحاد يمثل مشكلة كبيرة أمام الأفراد المشاة الذين يحملون على ظهورهم معدات ثقيلة جدًا فكيف يكون الحال إذا كان عليهم أن يتسلقوه وسط جحيم النيران الذي يتربص بهم.

- وإذا نجح المشاة في عبور الساتر - فكيف يمكن للمدرعات أن تعبره بأسرع ما يمكن - خاصة أن القوات المصرية لا تملك قنبلة ذرية ولا عصا سحرية.

- أنشأ الإسرائيليون عددًا آخر من السواتر الترابية على عمق يتراوح بين واحد وثلاثة كيلومترات من الشاطئ الشرقي للقناة بنظام خاص، وهذه السواتر تستخدم كخطوط ومرابض نيران إضافية للدبابات وهي تلعب دورًا مؤثرًا في تحقيق عنصر الدفاع المحرك وهو تكبيد القوات المهاجمة أكبر خسائر ممكنة.

***

سلاح إسرائيل السري:

أعدت القوات اليهودية أجهزة لضخ مواد ملتهبة على الشاطئ الشرقي للقناة وقد صممت هذه الأجهزة بحيث تكون قادرة على أن تضخ وتدفع على سطح المياه بطول امتداد القناة مزيجًا من النبالم والزيوت المشتعلة وكميات من الكيروسين لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه وبذلك تتحول القناة نفسها إلى حاجز من اللهب يستحيل اختراقه وكانت هذه الأجهزة الرهيبة تتكون من عدد من المستودعات الضخمة المعبأة بالخليط سريع الالتهاب، ولها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة ويخرج منها خط من الأنابيب بقطر ٦ بوصات وتنتهي بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة وبشكل أكثر تركيزًا في جميع الأماكن الصالحة للعبور، وكان كل مستودع قادرًا على ضخ ٢٠٠ طن من هذه المواد الملتهبة وكانت جميع المستودعات مدفونة تحت سطح الأرض حتى يستحيل ضربها بالمدفعية – وحينما تمكنت القوات المسلحة المصرية من الحصول على عينة من هذه المواد الملتهبة تمت تجربتها بنفس النسب على مياه النيل وعندما قيست درجة حرارة المياه في السطح بعد اشتعالها اتضح إنها وصلت إلى ما يقرب من ٧٠٠ درجة مئوية – أي أنها كانت من القوة والبشاعة بحيث تحول القناة إلى قطعة من جهنم حتى أنها تشوي الأسماك مهما هربت إلى القاع وتلفح حرارتها أي شخص يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر.

خط بارليف:

أنشأ اليهود على طول ضفة القناة الشرقية سلسلة من النقاط الحصينة «خط بارليف» وذلك لتكون مانعًا آخر في وجه عبور القوات المصرية.

يقول موشى ديان عن هذا الخط «إن عمليات العبور المصرية إذا حدثت لن تؤثر على قبضة إسرائيل الحازمة المتمثلة في خط بارليف المنيع – وسوف يتلقى المصريون الرد الحاسم لأن التحصينات الإسرائيلية في خط بارليف أكثر قوة وتنظيمًا ويمكن القول إنه خط منيع يستحيل اختراقه، إننا أقوياء بدرجة تكفي للاحتفاظ إلى الأبد بخط بارليف الذي أنفقنا على إنشاء تحصيناته مبالغ طائلة».

وقد استفادت إسرائيل من تجارب خطوط الدفاع السابقة وأضافت إليها. حتى كان خط بارليف عملاقًا بالمقارنة بتلك الخطوط. وقد ظلت العقلية الإسرائيلية العسكرية تضيف إلى هذا الخط تحصينات أخرى عامًا بعد عام حتى أصبح من وجهة النظر العسكرية خطًا منيعًا يستحيل اختراقه - فلكل دشمة من هذا الخط تجهيزات تجعلها قلعة مستقلة يمكن أن تصمد بمفردها و تعطي كمية هائلة من النيران - كما أنها لا تتأثر بطلقات المدفعية أو قصف الطائرات كما أنها مصممة بحيث تكون صالحة لاستخدام كافة أنواع الأسلحة وكان الهدف من هذا الخط هو ترسيخ الوجود العسكري اليهودي في سيناء ووقاية الجنود الصهاينة ضد التأثير النيراني للمدفعية والطائرات المصرية مع تحقيق القدرة على الصمود ضد أي هجوم بري من أي اتجاه - وفي الوقت نفسه تتيح تجهيزات الحصون إمكانية توجيه ضربات تدميرية للقوات المصرية لإجهاض أي محاولة أو حتى فكرة للعبور، وإعطاء إنذار مبكر ببدء العمليات من جانب القوات المصرية، وإعطاء معلومات دقيقة بوسائل الاستطلاع الموجودة في المواقع الحصينة والمستفيدة من ارتفاع الساتر الترابي عن عمليات الإعداد وعمليات اقتحام القناة وخاصة في المراحل الأولى، والسيطرة على المناطق الصالحة للعبور والطرق الطويلة التي تؤدي إلى عمق سيناء، وإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطيران الإسرائيلي.

- يقول توماس تشينهام مراسل وكالة اليونايتدبرس عن هذا الخط «إن الجيش المصري - على الرغم من آلاف القصفات من المدفعية الثقيلة والهاونات والصواريخ، قد يفشل في تدمير حصن واحد من حصون خط بارليف».

الذراع الصهيونية.. الطويلة

كان سلاح الطيران الصهيوني يمثل ولا شك عقبة ضخمة وتحديًا هائلاً أمام الجندي والجيش المصري. فما لا شك فيه أن الطيران الصهيوني كان متفوقًا من حيث العدد والنوع بطريقة كبيرة جدًا. كما أن ذلك السلاح كان يمتلك التجهيزات والمعدات الإليكترونية المعقدة والحديثة وأجهزة الرادار وكذلك يمتلك الطائرات ذات المدى البعيد - أضف إلى ذلك أن القواعد الجوية الإسرائيلية كانت بعيدة عن

مدى الطائرات المصرية بعد احتلال سيناء في حرب ١٩٦٧ وقد أكد معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن في تقرير عام ١٩٧٣ التفوق الجوي الإسرائيلي، ولعل ما يوضح هذه الصورة قول هنري كيسنجر بعد يوم واحد من حرب رمضان عندما التقى بالدكتور محمد حسن الزيات «ماذا نستطيع أن نفعل من أجلكم؟ إن الطيران الإسرائيلي سوف يمزقكم إربًا إربا في غضون الأربع والعشرين ساعة الأولى من الحرب».

المدرعات الإسرائيلية:

تقول مجلة «أرمور» العسكرية الأمريكية في عام ١٩٧٣ : «إن سلاح المدرعات الإسرائيلي من أقوى أسلحة المدرعات في العالم» وفي تحليل نفس المجلة لأرقام الدبابات والمدرعات والعربات والألوية الميكانيكية التي يتكون منها سلاح المدرعات الإسرائيلي وصلت المجلة في النهاية إلى القول بأن ٧٨٪ من المدرعات الإسرائيلية متفوقة من حيث العدد والنوع والقدرة على الحركة والتسليح على الدبابات العربية.

***

إذن فقد كان حجم التحديات هائلاً وكانت المصاعب والتحصينات كثيرة، كان هناك تفوق جوي إسرائيلي هائل – والقتال تحت وطأة هذا التفوق الجوي مخاطرة كبيرة – وكانت أجهزة الحرب الإليكترونية المعقدة موجودة بوفرة لدى الإسرائيليين – كما كانت أقمار التجسس الأمريكية تزود الإسرائيليين بالمعلومات أولاً بأول، وكان هناك تفوق في المدرعات وكان هناك أخطر مانع مائي في التاريخ «قناة السويس»، وكان هناك الساتر الترابي. ثم خط بارليف – وما أدراك ما خط بارليف – ثم أنابيب النابالم والمواد الملتهبة، كان كل هذا موجودًا وعلى الجانب الآخر كان السلاح متواضعًا – والميزان العسكري من حيث التسليح مختلاً لصالح العدو – ولكن هناك إنسانا – إنسانا مؤمنا بربه ودينه ووطنه إنسانا استطاع أن يقهر المستحيل – وأن يتخطى تلك العقبات والتحصينات وأن ينزل بالعدو هزيمة قاسية. إنسانا استطاع أن يتجاوز التفوق في السلاح بسلاح الإيمان – واستطاع بالإرادة أن يعبر

أخطر مانع مائي وأن يفتح الثغرات في الساتر الترابي وأن يعطل خراطيم النابلم والمواد الملتهبة – بل وأن يزيل خط بارليف الرهيب.

إننا إذا قارنا بين حرب ١٩٦٧. وبين حرب رمضان – نجد أن ميزان القوى العسكري من حيث التسليح بين الطرفين في الأولى متوازنًا وفي الثانية مختلاً – ومع ذلك فإن النتائج كانت عكس ما تقوله موازين القوى – ما هو المتغير الذي حدث والذي أدى إلى هذا؟ أولى المتغيرات أن الجيش المصري لم يُسمح له بالقتال في الأولى ولكن هذا الجيش ذاته قاتل في الثانية – وهكذا فإن الأصل في هذا الجيش وذاك الإنسان أنه قادر على القتال والنصر رغم أحلك الظروف فإن العيب لم يكن فيه أبدًا – ولكن كان في القيادة السياسية الغارقة في الإهمال أو الخيانة والتي تفرض عليه في كل مرة الانسحاب قبل القتال – ولكن عندما قاتل هذا الجيش انتصر. وهكذا فإن حرب رمضان هي الأصل وغيرها هو الاستثناء – وهي وحدها الصالحة لتقييم أداء الرجال في المعارك.

قبل حرب ١٩٦٧ – كان الإنسان المصري ممزقًا بفعل عوامل القهر والتعذيب والانفصام النفسي الذي حاولوا إحداثه به عن طريق عزله عن دينه وعن ربه وتلقينه مبادئ ما أنزل الله بها من سلطان – وقبل حرب رمضان – كانت الحركة الإسلامية وعلماء الدين المجاهدين برغم السجن والتشريد تعمل بنشاط لإعادة ثقة الإنسان في نفسه وتحليل الأسباب الحقيقية للهزيمة في ١٩٦٧ والتركيز على قضايا الجهاد والقتال وسير الغزوات والمعارك التي خاضها الرسول والصحابة في الصدر الأول من الإسلام وكذلك أخبار الانتصارات والمعارك الكبرى ضد الصليبيين والتتار – كان هذا كله يحدث رغم أنف النظام أو تحت السطح – بل إن النظام اضطر إلى السكوت على قيام الجنود بتشييد المساجد في وحداتهم العسكرية وإقامة الصلاة الجامعة بها وتدارس آيات الجهاد والقتال في الوحدات العسكرية. وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا أن أصبح هناك جامعًا وجدانيًا كبيرًا يجمع بين المقاتلين. الذين انطلقت صيحتهم بدون ترتيب في وقت واحد في كل مكان «الله أكبر» لتهز صروح الطغيان ولتتجاوب مع إرادة الله في النصر ولتحقيق أعظم حافز معنوي في التاريخ

وكان من الطبيعي أن يقهر الجنود المؤمنون الحاجز المائي والساتر الترابي وتحصينات خط بارليف – وأن ينتصروا رغم التفوق الجوي الإسرائيلي وكفاءة المدرعات اليهودية. كان الإنسان متسقًا مع نفسه ومع وجدانه فلما قاتل انتصر.

ولكي ندرك حجم الإنجاز الهائل الذي تم لنقرأ معًا ماذا حقق الجنود المؤمنون الصائمون ذوو الجوارح المتوضئة. وسنقدم شهادات من العدو نفسه.

في مجلة «لانوفيل أو بزفاتور» الفرنسية كتب فيكتور سيجلمان وهو كاتب يهودي مقالاً بعنوان «نهاية دولة إسرائيل الكبرى» قال فيه: «لقد اختفت تمامًا أغاني الانتصار التي كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ٦٧ – وحل محلها الآن أغان تقول كلماتها «باسم الجنود الذين احترقوا في دباباتهم، باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة في أجسادهم، باسم وباسم وباسم».

وتقول جولدا مائير: «لا شيء أقسى على نفسي من كتابة ما حدث في ١٩٧٣ فلم يكن حدثًا عسكريًا رهيبًا فقط – وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معي حتى الموت». وتضيف «إن صدمتنا لم تكن فقط في الطريقة التي حاربونا بها ولكن لأن عددًا من المعتقدات الأساسية التي آمنا بها قد انهارت – كانت أخبارًا مروعة من الجبهة تأتينا دائمًا».

– في اليوم الرابع للقتال ٩ أكتوبر ١٩٧٣ صرح موشى ديان للصحف «لن أخفي عليكم أن قواتنا في الجولان وفي قناة السويس في حالة ذعر تام – ولم يعد لخط بارليف وجود، كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة، وأصارحكم بأنني لا أتمنى أن أكون في هذه اللحظات في موقف رجال مدرعاتنا.. أما سلاحنا الجوي فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه في اليوم الأول فقط – ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم».

حقًا لقد كان حجم الإنجاز الذي حققه الرجال بوسائلهم البسيطة هائلاً.

الإنسان – الإنسان

«المشاة المصريون مفاجأة رهيبة لنا – كل التقارير تقول بأن ضرباتهم لمدرعاتنا

وحصوننا بالغة الدقة والجسارة – لقد اتضح أن ذراع هؤلاء المشاة المصريين أطول من مدافع دباباتنا – بل إن بعضهم كان يلقي بنفسه فوق الدبابات ليفجرها».

من أوراق «دافيد اليعازر» رئيس الأركان الإسرائيلي في حرب رمضان

ولكن ما حدث – كيف حدث – كيف استطاع الإنسان المسلم أن يحقق ذلك الإنجاز. وإذا كانت كل الحسابات العلمية والعملية تقول في ذلك الوقت إن العبور مستحيل – فلماذا نجح العبور؟ إننا أمام مدرستين في التفكير – المدرسة الاستعمارية – التي تحسبها بالكمبيوتر وتحاول أن تلقي في روعنا أن الآلة والكمبيوتر والطائرة والدبابة والصاروخ هي العوامل الحاسمة – وهناك المدرسة الإسلامية التي لا تقلل من أهمية الآلة والكمبيوتر والطائرة والصاروخ وغيرها – ولكن تقول إن الإنسان ذاته أقوى من كل هذه الأشياء وقادر على تجاوزها – وخاصة إذا استمد هذا الإنسان قوته من الله تعالى – القادر على كل شيء. والذي وعد جنده بالنصر. كانت مفاهيم تلك المدرسة تنتشر بين الرجال في كل موقع برضا النظام أو رغم أنفه – فوق السطح وتحت السطح وقد تجسدت تلك المفاهيم في تلك الصيحة الهائلة التي أطلقها الجنود في وقت واحد في كل جبهات القتال في العاشر من رمضان – تلك الصيحة التي روعت جنود الاحتلال وجعلتهم يفقدون صوابهم ويتحولون إلى قطعان من الماشية تنتظر الذبح، تلك الصيحة التي خلقت من الجنود في كل موقع كتلة واحدة متماسكة تستمد قوتها من الله تعالى القاهر فوق كل قوة والقادر فوق كل متكبر.

إن تتبع يوميات معركة رمضان يؤكد صحة النظرية الإسلامية التي ترى أن الإنسان أقوى من كل الآلات والأسلحة والحاسبات الآلية طالما كان يستخدم ما هو متاح لديه من طاقات وطالما كان يبذل كل ما في وسعه من جهد.

فعلى مستوى التدريب – بذل الرجال كل ما في وسعهم في هذا التدريب – وعلى مستوى التفكير فكر الرجال في كل صغيرة وكبيرة، ودرسوا كل الاحتمالات، وعلى مستوى التمويه نجح الرجال في إخفاء معالم تحركهم، وفاجئوا العدو به، وهكذا

أكدوا أن الإنسان المصري قادر على خداع اليهود أساتذة المكر والخداع.

كان الخبراء السوفييت قد خرجوا من مصر عام ١٩٧٢ – حاملين معهم أسلحتهم وأجهزتهم – ولعل هذا يؤكد أن العمل كان مصريًا صميمًا فلم يشارك فيه الخبراء السوفييت ولا أجهزتهم – الأمر الذي يؤكد أصالة وشجاعة وتفوق الجندي المصري، كانت الإمكانيات محدودة للغاية بعد أن تباطأ السوفييت في إعطاء مصر حاجتها من السلاح واعتمد الرجال على الوسائل المصرية المتاحة لتحقيق العبور واقتحام الصعاب.

ففي مرحلة الإعداد والتحضير – قام الجيش المصري بالعديد من تجارب العبور على موانع مائية تشبه قناة السويس إلى حد كبير جدًا، وقام سلاح المهندسين المصري بإعداد وتوفير معدات ومهمات العبور فتم تصنيع ٦٠٪ من الكباري محليًا، وتمت صناعة ٧٥٪ من قوارب الاقتحام التي وصل عددها إلى ٢٥٠٠ قارب وتم التدريب الشاق على إقامة الكباري في أسرع وقت – برغم بدائيتها وعلى استخدام القوارب بشكل منظم جدًا.

– قام العلماء من رجال القوات المسلحة المصرية بدراسة بالغة الدقة لكل ما يتعلق بالقناة كمانع مائي – كما تم تحديد أصلح الأماكن لإقامة المعابر واختيار أنسب الأوقات باليوم والساعة كما تم تحديد وإعداد الطرق والممرات اللازمة لوصول المركبات إلى أماكن العبور – كما تم إعداد الخطط المناسبة للتنسيق بين مختلف أفرع القوات المسلحة فقام سلاح الجو بدوره وقامت المدفعية بدورها وقام رجال الصاعقة البواسل بالعمل خلف خطوط العدو وتعطيل قواته – كما أن تلك القوات الخاصة استطاعت أن تبطل استخدام خراطيم المواد الملتهبة، وذلك بأن قامت مجموعتان من رجال الصاعقة قبل ساعة الصفر بوقت كاف بالتسلل إلى الضفة الشرقية للقناة وسدت مواسير المواد الملتهبة بتركيبة معينة من الأسمنت وبعض اللدائن سريعة التصلب كما قامت المجموعة الثانية بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة.

وفي مواجهة الساتر الترابي – وبعد أن أثبتت التجارب عدم جدوى استخدام

المفرقعات أو غيرها من الوسائل ضده تفتق ذهن ضابط مهندس شاب عن اقتراح باستخدام طلمبات المياه «أسلوب التجريف» وهكذا نجحت تلك الفكرة الرائدة في فتح الثغرات اللازمة لعبور المركبات في الساتر الترابي. على أن تقوم قوات المشاة في الوقت نفسه بالعبور فوق الساتر الترابي بأسلحتها وذلك باستخدام عربة يجرها الجنود تحمل لهم الأسلحة والذخيرة اللازمة للتعامل مع العدو وخاصة الطلقات والمدافع الصغيرة المضادة للدبابات.

***

وهكذا نجحت خطة التغلب على المانع المائي والساتر الترابي – وإذا ما حللنا عناصر تلك الخطة نجد أنها اعتمدت على الإنسان أولاً وأخيرًا، ففي مواجهة خراطيم المواد الملتهبة كان الاعتماد على العنصر البشري «رجال القوات الخاصة وبأدوات بسيطة جدًا» فقامت هذه القوات إما بسد فوهات الأنابيب بالأسمنت واللدائن – أو بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة، وهكذا كان العنصر البشري هنا فاعلاً – لأنه لو قدر لهذه المواد أن تعمل لكانت النتيجة مروعة – وبدهي أنه سبق تنفيذ هذه العملية عمليات بحث شاقة واستطلاع وتحديد دقيق لأماكنها وكل هذا الجهد يعتمد أساسًا على الإنسان.

قارن بين هذا العمل وبين إلغاء هتلر لعملية عبور مشابهة بسبب وجود مواد ملتهبة قابلة للاشتعال في معاركه مع بريطانيا في الحرب العالمية الثانية.

وفي مواجهة المانع المائي تم الاعتماد على الأدوات المحلية لصنع الكباري والقوارب – وتم التعويض عن بدائية الأدوات بكفاءة الرجال وشجاعتهم وهكذا فإن استخدام الأدوات المحلية يؤكد إمكانية تجاوز ضعف الإمكانيات بالمزيد من الاعتماد على الطاقات الإنسانية – أضف إلى هذا أن الدراسة المضنية والتدريب الشاق على العبور واختيار أفضل الأماكن والأوقات للعبور يؤكد صحة النظرية الإسلامية – فكل تلك الأمور هي جهد إنساني أولاً وأخيرًا.

وللتغلب على الساتر الترابي الذي وصفه أحد الخبراء الروس بأنه يحتاج إلى قنبلة

ذرية – استخدم المصريون فكرة عبقرية وهي استخدام طلمبات المياه «التجريف» وهي فكرة بسيطة وأدواتها متاحة وتؤكد أيضًا أن الإنسان بمزيد من الجهد والتفكير والإخلاص قادر على تجاوز أقوى الصعوبات، أضف إلى ذلك استخدام المشاة لعربة يد تحمل الأسلحة والذخيرة اللازمة وهي فكرة بسيطة أيضًا قد مهدت الطريق أمام تلك القوات لتسلق الحاجز الترابي منذ اللحظة الأولى – وهو الأمر الذي كان صعبًا بل مستحيلاً ما لم يتخفف الجندي من حمولته لو حملها على كاهله وأراد أن يتسلق بها الساتر. وكانت هذه الأسلحة والذخيرة لازمة لاقتحام خط بارليف والتعامل مع الدبابات.

وعلى مستوى القوات الجوية المصرية – فإن الطيارين البواسل قد حولوا طائراتهم الأقل كفاءة إلى طائرات أكثر كفاءة من العدو وذلك اعتمادًا على حسن تدريبهم وعلى شجاعتهم المنقطعة النظير، والأمر ذاته ينطبق على رجال المدفعية والدفاع الجوي، وكل هذا الجهد الإنساني ساهم في نجاح العبور حيث ساهمت الضربة الجوية والمدفعية في تعطيل وشل قوات العدو فترة كافية تسمح بالعبور، وكذلك قيام رجال الصاعقة بمهمتهم خلف خطوط العدو – وهو أيضًا أمر يعتمد على شجاعة وبسالة وحسن تقدير هؤلاء الرجال للأمور وكلها أمور إنسانية.

إذن كل هذا يؤكد أن الإنسان هو العامل الأهم في القتال – وهو ما تؤكده المدرسة الإسلامية. وهي تؤكد كفاءة وقدرة الإنسان المصري على عكس ما تروج المدرسة الاستعمارية.

ونصل الآن إلى خط بارليف. ذلك الخط من الاستحكامات والتحصينات الذي أقامته إسرائيل واعتبره قادتها من أكفأ الخطوط الدفاعية وأن الجيش المصري غير قادر على مواجهته. وبدهي أن هناك عمليات استطلاع ورصد قام بها رجال الصاعقة والاستطلاعات لدراسة ذلك الخط نقطة نقطة ودشمة دشمة، ودرسوا نقاط القوة والضعف فيه ووضعوا الخطط اللازمة لاقتحامه وهذا كله جهد إنساني في المقام الأول ولولا تلك الدراسة التفصيلية والدقيقة لهذا الخط لكان اقتحامه مستحيلاً. وقد كانت خطة اقتحام نقاط خط بارليف تقوم على دكه بالمدفعية الثقيلة والطيران،

على أن يقوم رجال المشاة والصاعقة باقتحام النقاط الحصينة والدخول إليها وإدارة معركة داخله. وقد نجح هذا الأسلوب أيما نجاح حيث إن الجندي الصهيوني غير قادر على المواجهة المباشرة – وكان الجنود الصهاينة يفاجئون بمن يدخل عليهم داخل حصونهم ويدير معركة معهم – وكان هذا كله يعتمد على شجاعة وكفاءة الإنسان أولا وأخيرًا – فلم تكن نيران المدفعية ولا الطائرات ولا نيران الدبابات بقادرة على تدمير هذا الخط شديد التحصين – وهذا يؤكد مرة أخرى أن الإنسان كان هو العامل الحاسم في كل مراحل المعركة.

وعلى مستوى المعركة مع سلاح الطيران الصهيوني – أقوى وأفتك الأسلحة الإسرائيلية وأشدها فعالية – والذي كانت إسرائيل تعتبره سلاحها الحاسم في المعركة – وبالنظر إلى التفوق النوعي والكمي الهائل في هذا السلاح فإن عبء شل فاعلية هذا السلاح وقعت أساسًا على وسائل الدفاع الجوي المصرية المتكونة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات والصواريخ الموجهة أرض جو وخاصة سام ٧ الذي يحمله فرد المشاة، وبالطبع فإن ذلك كان يقتضي نظامًا صارمًا من التنسيق والاستيعاب والكفاءة والتدريب للأطقم التي شغلت هذه الوسائل والتي نجحت في تحقيق غطاء فعال للقوات التي تعبر أو التي عبرت إلى الضفة الشرقية للقناة – وإذا ما وضعنا في اعتبارنا الحقيقة العسكرية التي تقول: «إن الطائرة لا تواجهها إلا طائرة» لأدركنا الإنجاز الهائل الذي حققه رجال الدفاع الجوي في تلك المعركة – حيث استطاعوا رغم الحقائق العسكرية أن يحققوا هدفهم في شكل قوة العدو الجوية اعتمادًا على كفاءتهم وشجاعتهم وبذلهم الإنساني – وهو ما يؤكد أن الإنسان كان دائمًا هو العنصر الحاسم رغم كل شيء.

فإذا وصلنا إلى سلاح الطيران المصري – والذي كان الطيران الإسرائيلي يتفوق عليه كمًّا ونوعًا. نجد أن هذا السلاح قد استطاع في الساعات الأولى للمعركة أن يقوم بضربة مركزة وحاسمة لقواعد وقوات وشبكة اتصال العدو في سيناء مما أخر دخول سلاح الجو الصهيوني سماء المعركة مما أدى إلى تحقيق عملية العبور بنجاح – وقد اعتمد سلاح الجو المصري في ذلك أساسًا على كفاءة الطيارين وفدائيتهم وروحهم

العالية – وهي أمور إنسانية أساسًا.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام هي تلك السيمفونية المتناسقة والمتجانسة للتنسيق بين الطيران والدفاع الجوي والتي هي أيضًا محصلة الجهد الإنساني أولاً وأخيرًا. ولعل الدور الهام والخطير الذي لعبه سلاح الطيران المصري ووسائل الدفاع الجوي المصرية في حرب رمضان يؤكد أن العيب لم يكن في رجال ذلك السلاح في عام ١٩٦٧.

ويمكننا أن ندرك خطورة ما قام به السلاح الجوي ووسائل الدفاع الجوي المصري في حرب رمضان إذا ما قرأنا ما قاله موشى ديان في اليوم الثاني من القتال «لقد استطاع المصريون تحييد سلاحنا الجوي – وإنني آمل أن يرسل لنا الأمريكيون الأسلحة التي طلبناها».

وقال الجنرال «أنتوني فارا رهوكلي» أستاذ التكتيك في الجيش البريطاني: «إن الطيارين المصريين أزالوا الدور الأسطوري للطيران الإسرائيلي في حرب ١٩٧٣ وبالتالي تضاءل دور المدرعات الإسرائيلية في تحقيق أي نجاح خلال معاركها التصادمية».

وقد قال الخبير الأمريكي روبرت هونز «إن الطيارين وسلاح الدفاع الجوي المصري والسوري استطاعوا تخفيض القوات الجوية الإسرائيلية إلى النصف في الفترة من ٦ – ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ وبنهاية هذه الفترة تضاءل نشاط الطيران الإسرائيلي إلى حد كبير وبعيد إلى أن بدأ الدعم الجوي الأمريكي بالطائرات والطيارين الأجانب».

إذا فقد كان السلاح الجوي المصري رائعًا – كما أن سلاح الجو الصهيوني قد مني بخسارة فادحة وتم تحييده وإخراجه من المعركة برغم التفوق النوعي والكمي الهائل له – ألا يؤكد هذا أن العنصر الإنساني والكفاءة القتالية كانا العاملان الأهم في هذا الصدد.

***

وإذا كانت إسرائيل تملك قوة مدرعة متفوقة على حد رأي الخبراء العالميين والذي وصل الأمر بأحدهم أن يقول: «إنها واحدة من أقوى المدرعات في العالم». فإن علينا الآن أن نرى كيف استطاع المقاتل المصري أن يواجه تلك المدرعات ويسحقها.

وقد اعتمدت الخطة المصرية على أن تكون الموجات الأولى للعبور والاقتحام للمشاة. وأن على هؤلاء المشاة أن يتصدوا للدبابات الإسرائيلية وتم تزويد هؤلاء المشاة بمختلف الأسلحة المضادة للدبابات في نفس الوقت الذي تقوم فيه المدفعية والدبابات المصرية على الضفة الغربية للقناة بالمساعدة في مواجهة تلك الدبابات كما تم عمل أكمنة يربض فيها عدد من جنود المشاة فوق الساتر الترابي في الضفة الغربية للقناة لاصطياد الدبابات الإسرائيلية بصواريخهم المضادة للدبابات «قناص الدبابات».

وقد نجحت القوات المصرية في شل فاعلية الدبابات الصهيونية واصطياد عدد كبير منها وخاصة على يد قناصي الدبابات الذين وصلت شهرة بعضهم إلى مستوى كبير مثل عبد العاطي صائد الدبابات الذي استطاع أن يدمر أكثر من عشرين دبابة.

والآن لنقرأ بعض أقوال قادة العدو لنعرف إلى أي مدى نجح المقاتل المصري في التصدي للدبابة وشل فاعلية قوات المدرعات الصهيونية. يقول زئيف شيف الخبير الإسرائيلي: «كانت إصابات رجال المدرعات كبيرة».

ويقول قائد إحدى سرايا المدرعات – الضابط «باروخ شمبر»: «نظرت حولي فشاهدت قذائف نارية مشتعلة ترقص في الجو وهي في طريقها إلى دباباتنا القريبة مني – لم أفهم بعد ماذا يحدث – ولكنني فهمت في وقت لاحق أن هذه صواريخ وأن المشاة المصريين الواقفين أمامنا لا يقلون خطورة عند الدبابة، كان هذا بالنسبة لنا مفاجأة تامة وطوال ذلك اليوم كنت أشاهد هذه القذائف النارية تتنزه في الصحراء وهي تنطلق من قلب الرمال، اشتعلت النار في دبابتي هي الأخرى قفزنا منها، كنا مذهولين، ولم يكن حظ الدبابات الأخرى في السرية بأوفر من حظنا – فعندما نظرنا

من خلف التلال الرملية، شاهدنا مشاعل محترقة كانت هذه فيما مضى دبابات السرية».

يقول الكاتب الأمريكي «كنث براورر»: «في الأيام الثلاثة الأولى لحرب ١٩٧٣ على الجبهة المصرية قام الإسرائيليون بشن هجمات مضادة سريعة بالمدرعات – ولكنهم كانوا يفشلون في كل مرة ويصابون بخسائر جسيمة حتى أنه دُمر لهم أكثر من ٢٥٠ دبابة على أيدي المشاة المصريين الذين صمدوا في الصحراء المكشوفة ومعهم الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات.

وهكذا أثبت أفراد المشاة المصريين المسلحين بالأسلحة المضادة للدبابات قدرتهم على هزيمة سلاح المدرعات الإسرائيلي – وهو ما يثبت مرة أخرى أن الإنسان هو العامل الحاسم في القتال.

***

يقول موشى ديان «إن أخطر ما نواجهه الآن في سيناء هم المشاة المصريين إنهم مزودون بصواريخ صغيرة يختفون بها عن الأنظار، فإذا ما تقدمت الدبابات الإسرائيلية أطلقوا عليها صواريخهم فيصيبونها وتصبح عاجزة تمامًا».

***

إننا الآن سنرسم بطريقة موجزة صورة حقيقية أخرى حدثت على مشارف مدينة السويس في الأيام الأخيرة من رمضان توضح إلى أي مدى يتمتع الإنسان المصري بصلابة غير عادية وبقدرة فذة على المواجهة.

كانت القوات الصهيونية قد نجحت في التسلل عبر الثغرة في منطقة الدفرسوار واستطاعت أن تصل إلى مشارف مدينة السويس وأن تحاصرها وحاولت تلك القوات أن تحتل المدينة – وكان معنى احتلال المدينة لا قدر الله أن حبلاً قد التف حول عنق الجيش الثالث في سيناء – وأن القاهرة ذاتها قد أصبحت مهددة.

تعرضت مدينة السويس لقصف بشع من الطائرات والدبابات والمدفعية الصهيونية وكانت المدينة تعاني من حصار الجوع والعطش. ولكن أهل المدينة

الشرفاء قرروا أن يقاتلوا – فلم يتعود المسلمون على حد قولهم أن يستسلموا وهددت مكبرات الصوت الصهيونية بدك المدينة ولكن ذلك لم يفت في عضد أهالي المدينة.

وكعادة الأمة حين يجد الخطر فقد لاذ أهالي السويس بالمسجد – واتخذوا من الشيخ المجاهد حافظ سلامة قيادة لهم لما عرفوا عنه من طول الجهاد والبلاء في سبيل الله – واجتمع أهل المدينة في مسجد الشهداء وقرروا أن يصمدوا وأن يقاتلوا، وصمدت المدينة للحصار وتقاسم أهلها كوب الماء وكسرة الخبز – بل إنهم أرسلوا شيئًا منها إلى رجال الجيش الثالث المحاصرين في سيناء، استخدم أهالي السويس ما تيسر لهم الحصول عليه من الأسلحة من جنود الجيش الثالث في المدينة وخاصة الذين استشهدوا أو جرحوا، كان مركز القيادة في مسجد الشهداء، وانطلقت المجموعات المجاهدة من المسجد لتسد منافذ المدينة بالسيارات والمصفحات المحطمة. وقامت تلك المجموعات بعمل الأكمنة في مداخل المدينة واستطاعت أن تصد جميع الهجمات الصهيونية، وكانت الدبابات التي تنجح في دخول المدينة تتعرض للتدمير على يد الأهالي الذين استخدموا في ذلك

ما تيسر لهم من الأدوات – شارك الجميع في تلك المعارك – الرجال والأطفال والنساء – والعمال والتجار ورجال الدين – ولم ينج جندي صهيوني واحد تجرأ على دخول المدينة واستطاعت المدينة أن تظل صامدة لتخوض معركة بعد معركة شاهدة على قدرة الإنسان المصري.

إن عددًا من الملاحظات يمكن أن نسجلها هنا – فبرغم القوات الصهيونية الضخمة والمسلحة جيدًا – وبرغم بساطة إمكانيات أهالي السويس فإن أهالي السويس نجحوا في الصمود لمدة طويلة برغم الجوع والعطش وآلاف القنابل والصواريخ، ويمكننا أن نفهم شراسة المعركة إذا ما أدركنا أن العدو الصهيوني كان يعول أهمية كبيرة على سقوط المدينة لما لذلك من أثر نفسي وعسكري كبير. وكل هذا يؤكد أن الجماهير قادرة على الصمود والانتصار.

مهما كانت قوة الأعداء ومهما كانت قـوة تسـليحهم، وأن الإنسـان هـو العامـل الرئيسي والأهم في المسألة.

***

على أن الأمـر لم يقتصـر في حـرب رمضـان عـلى الأداء البطـولي لرجـال القـوات المسلحة المصرية أو هؤلاء الأهالي في السويس أو منطقة الدفرسوار التي قدر لهم أن يواجهوا القوات الصهيونية برجولة وشجاعة. بل إن روح رمضان قد سرت في جسـم الأمة كلها. كانت المشاركة الشعبية في المعركة هائلة ورائعة.

في كل قرية مصرية قريبة أو بعيدة عن جبهة القتال كانت قلوب الرجـال والنسـاء والأطفال معلقة بالمذياع وأحاديث العلماء المجاهدين في المساجد يشـرحون فيهـا أبعاد المعركة وما تم إنجازه في جبهة القتال – كانت المساجد كخلايا النحل يجتمـع فيها كل الأهالي ليتدارسوا أمر مشاركتهم في المعركة ووسائلها – قدم النـاس كـل مـا لديهم من ملابس وطعام لدعم رجال القوات المسلحة.

وعرض الكبير والصغير أن يتبـرع بدمـه، وتكونـت لجـان للتضـامن مـع أهـالي المقاتلين وخدمتهم. لم يكن هناك بيت في مصر كلها إلا ووضع كل مـا يملـك تحـت تصرف المعركة. ليس هـذا فحسـب – بـل وعـلى مستوى الأداء الـوظيفي تخلـص الجهاز الوظيفي المصري المشهور بالبيروقراطية من كثير مـن بيروقراطيتـه وأصـبح الإنسان قادرًا على إنجاز طلباته في أسرع وقت – وقام العمال في المصانع بالعمل ليلاً ونهارًا لزيادة الإنتاج وحماية مصانعهم. كان كل شيء في مصر يتحرك بروح رمضان.

***

لماذا كـان هـذا – ومـا هـي دلالاتـه – إن الحقـائق المجـردة. تقـول إن العـدو الصهيوني يمتلك أحدث الأسلحة وأقواهـا – وتقـف خلفـه دول حلـف الأطلنطـي بإمكانياتها الهائلة – وعلى الجانب الآخر يقف الإنسان المصري بأسلحة غير متكافئة ومع ذلك كانت النتيجة أن هذا الإنسان قاتـل فانتصـر، كـان العـدو يمتلـك أحـدث أجهزة التصنت والتجسس الإليكترونية وكان لديه المعلومات أولاً بأول عـن طريـق

الأقمار الصناعية وأجهزة الرصد التابعة لأمريكا ولحلف الأطلنطي – وكان لدى الإنسان المصري أن يعتمد على نفسه في الاستطلاع خلف الخطوط وأن يحصل على معلوماته بالعمليات الفدائية والتسلل.

كان العدو الصهيوني يمتلك أحد الطائرات وأقوى سلاح جوي في المنطقة – ومع ذلك نجح الإنسان المصري بالتدريب الشاق والاعتماد على الجرأة والشجاعة والفدائية وأبسط الأسلحة أن يشل حركة قوات العدو الجوية.

كان العدو الصهيوني يمتلك أقوى سلاح مدرعات – ولكن فرد المشاة والكوماندوز استطاع بما يحمله من أسلحة بسيطة أن يحول هذا السلاح إلى ركام.

كان هناك مانع مائي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب – ولكن الرجال كان لديهم الإرادة فصنعوا المعابر والكباري والقوارب وصنعوا بأجسادهم وأرواحهم حائطًا لحمايتها واستطاعوا العبور، رغم كل هذا كان هناك الساتر الترابي الذي قال عنه أحد الخبراء الروس إنه يحتاج إلى قنبلة ذرية ولكن عبقرية الإنسان المصري وبأدوات متاحة استطاعت أن تحدث ثغرات في هذا الساتر المنيع باستخدام فكرة عبقرية لأحد المهندسين المصريين «فكرة التجريف بمضخات المياه».

وكانت هناك خراطيم المواد الملتهبة. ولكن رجال الكوماندوز المجاهدين استطاعوا أن يحيلوها إلى خراطيم صماء.

كان هناك خط بارليف المنيع – ولكن كان هناك رجال المشاه الذين اقتحموا الحصون بأجسادهم فأحدثوا ذعرًا هائلاً لقوات العدو.

كان هناك شعبًا يجاهد بجانب الجيش المقاتل – واستطاع أهالي السويس أن يصمدوا للحصار حصار الجوع والعطش والقصف وأن يحطموا كل الهجمات الصهيونية على مشارف المدينة وأن ينقذوا الجيش الثالث في سيناء وأن يحرموا القوات الصهيونية من فرصة السيطرة على مدينة السويس بما لها من آثار نفسية وعسكرية، وكان هناك الإنجاز الرائع للعمال في المصانع والفلاحين في الحقول والموظفين في المكاتب.

كان هناك الإنسان المصري. الذي قاتل فانتصر.

إذن فقد كانت حرب رمضان هي القاعدة الصالحة لتقييم الإنسان المصري وليس حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ – لأنه في كل تلك المعارك لم يحارب – فلا نستطيع أن نجعلها اختبارًا صالحًا – إذًا فالحقيقة الأولى هي إذا قاتل الإنسان المسلم انتصر. والحقيقة الثانية أن ذلك الإنسان أقوى من الآلة، والحقيقة الثالثة: أنه إذا وجد هذا الإنسان سواء كان مقاتلاً أو مدنيًا الظروف الصحيحة لاستخراج طاقاته فإنه يكون عبقريًا.

ولكن ما هذه الظروف الصحيحة؟

إننا إذا حللنا ظروف حرب رمضان مقارنة بظروف حرب ١٩٦٧ نجد أن الظرف الأول هو السماح لهذا الإنسان بالالتحام والقتال ونجد أن الظرف الثاني هو أن يكون الشحن المعنوي لهذا الإنسان مرتبط بعقيدته ووجدانه «الإسلام». فعلى حين كان الشحن المعنوي فيما قبل ١٩٦٧ يعتمد على عقائد وأفكار لا يعرفها ولا يفهمها بل يرفضها الإنسان المصري نجد أن الشحن المعنوي في حرب رمضان كان إسلاميًا – فمن ناحية قامت الحركة الإسلامية برضا النظام أو عدم رضاه بهذه الأمر – وقام به علماء الإسلام المجاهدين الذين ذهبوا إلى الجنود في الخنادق وتحدثوا عن بدر وحطين وعين جالوت – وقام به الجنود أنفسهم بمبادرات شخصية منهم مع بعض الضباط – وساهم في هذا الأمر أن توقيت المعركة جاء في رمضان وهو شهر انتصارات المسلمين أولاً – وهو شهر ترتفع فيه الجوانب الإيمانية للإنسان المسلم بصورة مباشرة. كما أن موعد المعركة كان في نفس ذكرى معركة بدر – أضف إلى هذا كله صيحة الله أكبر التي خرجت من صدور الجنود الصائمين.

والظرف الثالث هو أن الإنسان المصري تعرض قبل ١٩٦٧ لحالة من العزلة وفرضت عليه القيادة السياسية ألا يفكر وأن يسمع فيطيع وتم إخلاء الحياة السياسية من كل شيء ما عدا حزب الحكومة «الاتحاد الاشتراكي» ليس هذا فحسب بل إن أي صاحب عقيدة كان يتعرض للسجن أو القتل أو التعذيب – بل مورس التعذيب على الإنسان العادي في حين أن الظروف قبيل حرب رمضان كانت أفضل كثيرًا جدًا

في هذا الصدد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الآيتان ٩، ١٠ من سورة الأنفال].

مدد الله

ومدد الله تعالى لا يأتي للقاعدين أو الكسالى أو المتراخين – ولكنه يأتي للمجاهدين الذين يبذلون من الجهد أقصاه ومن العمل آخر مداه.

ومدد الله حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد. وهي حقيقة تستند إلى صريح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وإجماع العلماء، وقد جاء مدد الله تعالى للمسلمين في غزوة بدر وتخلف في غزوة أحد ثم عاد ليظهر في غزوة الخندق، جاء في الأولى مباشرة عن طريق الملائكة المردفين وجاء في الثالثة غير مباشر عن طريق الرياح التي اقتلعت خيام الأحزاب وألقت بهم في الصحراء، جاء في الأولى والثالثة لأن المسلمين فيهما بذلوا غاية جهدهم في القتال

أو التدبير أو استخدام المكر والحيلة، وتخلف في الثانية لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم ينفذ بعضهم خطة رسول الله ﷺ وأوامره.

ومدد الله يأتي دائمًا ولا يتخلف وهذه حقيقة هامة جدًا في وجدان المسلم تدفعه إلى الثقة بالنفس وإلى الإحساس بالتفوق بل وتحقق له من الناحية العملية فوائد جمة. فإذا كان المسلم يعرف أنه يستند في قوته إلى صاحب القوة إلى القهار الجبار فإن ذلك يجعله يخوض المصاعب، و يجعله قادرًا على اجتياز المستحيل – فأي قوة وأي مستحيل لا تقاس بجانب قوة الله تعالى وقدرته. ولعل تلك الحقيقة الهامة بما لها من آثار نفسية وعملية هامة دفعت الاستعمار دائمًا ودفعت أبناء المدرسة الاستعمارية دائمًا إلى محاولة نزع تلك الحقيقة من وجدان أمتنا وإلقاء ظلال من الشك حولها

ومحاولة تطويق آثارها وذلك لكي يسهل على الاستعمار ترويض أبناء أمتنا والتحكم فيهم ونزع كل ما من شأنه زيادة قدرتهم على المواجهة والصمود.

وهناك شرطان أساسيان لوصول مدد الله تعالى – أولهما هو طاعة الله تعالى وثانيهما هو بذل كل الجهد والطاقة.

وإذا ما طبقنا هذان الشرطان على حرب رمضان المجيدة – نجد أن طاعة الله تعالى قد تحققت وذلك لأن جنود جيشنا قد تمسكوا بأهداب تعاليم الإسلام. وشيدوا المساجد في وحداتهم العسكرية – وأقاموا فيها الصلاة بل وعقدوا ندوات حول غزوات الرسول وحول الأفكار الإسلامية عمومًا – كما أنهم دخلوا المعركة في شهر رمضان الكريم وهو الشهر الذي تتجلى فيه طاعة الله تعالى لدى المصريين – وكان أكثر هؤلاء الجنود صائمين – وإن كان الإفطار مباحًا في الحرب – بل إن صيحة الله أكبر التي انطلقت تلقائيًا من صدورهم – إنما تعبر عن مكنون صدور وتوجههم الحقيقي الذي تجلى في تلك اللحظات الهامة من تاريخنا، وعلى مستوى الإعداد وبذل الجهد فقد بذل الرجال كل جهدهم وأخرجوا طاقاتهم بكاملها. سواء بالتدريب الشاق أو قدح أذهانهم للتغلب على الصعوبات الفنية، أو محاولاتهم المستمرة للحصول على السلاح والآلات اللازمة للحرب – وما لم يتيسر لهم الحصول عليه قاموا بتصنيعه – كما بذلوا جهدهم في إعداد الخطط ودراسة كل الاحتمالات وفي الاستطلاع والرصد والدراسة الفنية لكل صغيرة وكبيرة وبذلوا جهدهم وطاقاتهم في كل مجال قبل المعركة وأثنائها.

وهكذا جاءهم مدد الله تعالى بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة – سواء في أن الله تعالى أصاب العدو بالعمى والصمم رغم أنه كان يرى ويسمع فلم يقدر حقيقة الأمر رغم أنه يراه بعينه – أو في ذلك التخبط الذي ساد صفوفه عقب المعركة – أو في توفيق الله تعالى في عمليات قواتنا أثناء العبور وبعده. أو في تلك الآيات والمعجزات التي رآها الجنود رأي العين. سواء في القذائف التي لم تنفجر أو في توجيه قذائفهم نحو دبابات العدو وأهدافه أو هؤلاء الذين يرتدون الزي الأبيض والذين رآهم معظم الجنود على الجبهة في أيام القتال والتي تواترت الأخبار التي نقلها معظم الجنود

والضباط عن حقيقة هؤلاء الملائكة الذين شاركوا في المعركة. أو في الربط على قلوب المقاتلين أثناء المعركة.

وبدهي أنه برغم تواتر تلك الروايات مما يقطع بصحتها فإن أبناء المدرسة الاستعمارية من العلمانيين واليساريين راحوا يحاولون إنكار ذلك وإلقاء ظلال من الشك حوله – وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التي تريد اجتثاث كل ما من شأنه زيادة ثقة أمتنا في نفسها.

وقد تركزت حجج أبناء المدرسة الاستعمارية في إنكار تلك الخوارق على النحو التالي.

- إنها أمور لا تتفق مع منطق العلم.
- إنها أمور تقود إلى التفكير الخرافي وسيادة روح التواكل والعجز في صفوفنا.

والآن لنبدأ في مناقشة حجج هؤلاء – فمن ناحية منطق العلم والتفكير العلمي فإن ظاهرة ما إذا ما رآها الآلاف بل عشرات الآلاف وتواترت بشأنها الروايات – فليس من العلمية في شيء إنكارها، ولكن كان عليهم تصديق الرواية ما دامت متواترة وعدم إنكارها – ويمكنهم بعد ذلك البحث والاختلاف في تفسيرها.

على أننا كمسلمين نؤمن وانطلاقًا من الآيات القرآنية المحكمة والسنة النبوية المطهرة بأن مدد الله يأتي دائمًا للمجاهدين – وهذا الأمر في وجداننا وعقيدتنا أثبت وأرسخ من كل منطقهم ومنهجهم الذين يدعون علميته رغم أنه لا علمي ولا موضوعي.

ومن ناحية أنها أمور تقود إلى التفكير الخرافي وسيادة روح العجز والتواكل في صفوفنا – فإن كل مسلم يعلم أنه مأمور بطلب العلم – وأنه مأمور بالبحث في سنن الكون ودراستها وهناك عشرات الآيات القرآنية التي تدعو إلى ذلك – كما أن المسلم يعرف أن مدد الله لا يأتي إلا بعد أن يبذل الإنسان الجهد كل الجهد والطاقة كل الطاقة – الجهد العقلي والبدني والنفسي.

إن إيمان المسلم بأن مدد الله يأتيه لا يدفعه إلى العجز والتواكل بل على العكس تمامًا يدفعه إلى الإصرار والعمل برغم كل المصاعب لأنه يعرف أنه مهما كانت المصاعب أمامه فإن عليه أن يبذل كل جهده وأن يستنفد كل طاقته ثم يترك الباقي لله تعالى.

هل عرفنا الآن لماذا جن جنون أبناء المدرسة الاستعمارية من تواتر الروايات عن مدد الله في حرب رمضان؟!

والآن علينا أن نقدم بعض الخوارق المباشرة التي شاهدها آلاف من شهود العيان بحيث لا ينكرها إلا مكابر.

الزمان يوم عيد الفطر – ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣.

قرر أهالي المدينة – في إطار تحديهم للحصار الصهيوني أن يقوموا بأداء صلاة العيد في جماعة في مسجد الشهداء. وكان هناك رأي بعدم أدائها حتى لا يتعرض المصلون لقذائف الطيران والمدفعية الإسرائيلية.

الشهود. كل من حضر الصلاة من أهالي السويس أو جنود الجيش الثالث.

المعجزة: تنطلق آلاف القذائف من المدفعية والدبابات الإسرائيلية ويتعرض المسجد لقصف الطائرات – وتتساقط القذائف حول المسجد دون أن تصيبه ولو قذيفة واحدة أو صاروخ واحد منها – وتتم الصلاة – فقد كان المسجد في حراسة الله تعالى.

يقوم الشيخ المجاهد حافظ سلامة قائد المقاومة الشعبية بتوزيع كعكة على كل مصل «ويبلغ عددهم عدة آلاف» من صندوق وحيد للكعك كان معه. ولم ينفد هذا الصندوق.

– قام اليهود المحاصرون لمدينة السويس بمنع المياه عن المدينة وذلك بقطع مياه الترعة الحلوة عن المدينة – وتشح المياه تمامًا – ويقترح الشيخ عبد الله رضا أحد الوعاظ المجاهدين – أن يتم حفر بئر أمام مسجد الشهداء لاستخدام مياهه –

المالحة طبعًا – فمدينة السويس ليس بها مياه حلوة – في الوضوء وغسيل دورة مياه المسجد والاستنجاء والاستحمام وغيرها – ويشاء الله تعالى أن تخرج المياه عذبة – وتشرب المدينة الباسلة.

- يأتي إلى مسجد الشهداء – مقر قيادة المقاومة الشعبية – الحاج مبارك «٦٠ سنة» ويخبر الشيخ حافظ سلامة أن هناك بئرًا قديمة مهجورة اسمها بئر سيدي المدبولي – ويذهب الشيخ حافظ إلى البئر مع أهل السويس ويقرءون الفاتحة فإذا بالمياه تتدفق – فتغذي المدينة وتغذي الجيش الثالث المحاصر في سيناء واستمر تدفق المياه حتى نهاية الحصار.

- كان هناك نقص حاد في السولار اللازم لإدارة

- المخابز – ويشاء الله سبحانه أن يترك أحد الجنود سيارته المحملة بالسولار داخل إحدى الحواري بالمدينة «خشية إصابتها بالطيران على ما يبدو» وربما استشهد هذا الجندي – ويقوم المجاهدون في المدينة بالاستفادة منها وتوزيعها على المخابز – لتقوم بإعداد الخبز اللازم للمدينة المحاصرة.

- أليس هذا هو مدد الله تعالى – ولكنه جاء إلى المجاهدين في المدينة – لأن أهل المدينة بذلوا كل ما في طاقاتهم – قاتلوا بالسلاح وبأيديهم – قفزوا على الدبابات وأشعلوا فيها النار – صنعوا الأكمنة في مداخل المدينة ومنعوا القوات اليهودية من دخولها – اجتمعوا في المسجد وقرروا الصمود والقتال وتدارسوا الموقف – لم يفت فيهم حصار الجوع والعطش وآلاف الصواريخ والقذائف – تقاسموا اللقمة وكوب الماء. فجاءهم مدد الله تعالى.

الجندي أحمد العناني – من محافظة الدقهلية:

«كنت ضمن كتيبتي في منطقة كبريت – وكنا نتعرض لقصف متواصل من الطائرات الإسرائيلية. وكانت يد الله تحرسنا – كانت الصواريخ تتدفق من الطائرات كالأمطار الغزيرة. ومع ذلك كنا ننجوا في كل مرة نتعرض فيها للقصف. وفي إحدى

المرات أصاب صاروخ الموقع الذي كنت فيه. وبعد هدوء القصف. وجدت أن أشيائي كلها احترقت. كان لدي بعض الملابس والكتب والأوراق وغيرها، فحصت أشيائي فوجدتها كلها محترقة، وكانت المفاجأة حينما وجدت المصحف سليمًا لم تمسه النار رغم أنه كان في وسط ملابسي وكتبي وأوراقي – أثرت هذه الحادثة فيّ وفي زملائي وهزتنا جدًا – شعرنا أن الله معنا وأن عنايته ومدده لن يتخلفان عنا – زادتنا هذه الحادثة إصرارًا على القتال والصمود وارتفعت معنوياتنا جدًا.

- **الملازم أول أحمد منصور – الشرقية:**

كنا في مهمة خلف خطوط العدو – وكانا عددنا حوالي الـ ٥٠ فردًا. واستطاعت أجهزة الرصد الإسرائيلية أن تحدد موقعنا – وعلى الفور جاءت الطائرات الإسرائيلية – وأحسسنا أننا أصبحنا في قبضة الموت – أطلقت الطائرات الإسرائيلية علينا عشرات الصواريخ وأمطرتنا بوابل من رصاص الرشاشات ولم يقتصر الأمر على الطائرات – بل جاءت مجموعة من الدبابات حوالي ١٢ دبابة ودكت المنطقة التي كنا فيها بمدافعها – كما تساقطت علينا قذائف المدفعية الإسرائيلية، ومن العجيب أن الرصاص كان يمر من فوق رءوسنا أو يسقط حولنا – وكذلك الصواريخ والقذائف ولم يصب أحدنا بسوء. كأننا محاطون بالعناية الربانية – واستطعنا بعدها أن نحقق مهمتنا بنجاح.

– المقاتل صلاح الشيباني «الغربية» – «كنت أحد جنود الجيش الثالث في سيناء – وكان الماء قد نفد منا – وكنا نتعرض لقصف الطائرات وفي إحدى المرات سقط صاروخ بالقرب منا – وانفجرت المياه من الأرض نتيجة هذا الانفجار – ومن العجيب أنها كانت مياه عذبة – وهكذا شربنا وشربت معنا الكتائب القريبة منا.

لماذا تخلف الفن والأدب عن مواكبة روح رمضان؟

الحديث عن الحرب – وعن البطولات – عن المعارك التي تخوضها الشعوب – تسجيل الانتصارات والهزائم – العبر والدروس. كل هذا فريضة على كل أمة حية تريد أن يكون لها مستقبل – والفريضة تكون أكثر وجوبًا وأشد إلزامًا على هؤلاء

القادرين على ذلك من أصحاب الأقلام – الكاميرات – الفرش والألوان – بل وعلى المغني الشعبي على السواء.

والله سبحانه وتعالى – لفت أنظارنا إلى ذلك في كتابه الكريم – فقد أعطى القرآن الكريم مساحات واسعة لمناقشة المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل ضد المشركين وحلل فيها أسباب النصر والهزيمة على السواء. والله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم المسلمين درسًا – لأن البلاء في المعارك والانتصار فيها مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بدراسة كل ما يتصل بالمعارك من دروس وعبر وتوازنات قوة وعلاقات مع المحيط الخارجي وغيرها من الظروف المحيطة بكل معركة.

ومازلنا حتى اليوم نقرأ في كتاب الله الكريم دروس وعبر معارك بدر وأحد والخندق وحنين بل والسرايا الصغيرة والكبيرة والغزوات ضد يهود المدينة وغيرها من المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل.

إذن فتسجيل المعارك التي تخوضها الأمة بكل ملابستها ليس ترفًا بل هو فريضة والقرآن الكريم لم يقتصر على سرد المعارك بل حللها – وركز على أسباب القوة والضعف – عوامل الانتصار والهزيمة – بل وسجل حتى الظروف النفسية للمقاتلين لحظات الخوف – لحظات الشك – اختلال ميزان القوى وغيرها.

والاهتمام بالمعارك ليس قاصرًا على المسلمين الأوائل أو قل إنه ديدن كل شعب يريد أن يصنع مستقبله – ففي قصر فرساي بفرنسا مثلاً – تجد أن المصورين قد سجلوا كل معارك نابليون الكبيرة والصغيرة.

وهوليود اهتمت بتسجيل معارك المهاجرين الأمريكيين ضد الهنود الحمر – رغم ما فيها من تزوير واضح للتاريخ. لأن هؤلاء يعرفون أنهم بهذا يصنعون مستقبل بلادهم والرواية الشهيرة لتولستوي «الحرب والسلام» قد أخذت مكانًا منفردًا في تاريخ الأدب وهي رواية سجلت الحرب الروسية الفرنسية.

بل إن إسرائيل لا تترك معركة صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها أنتجت فيلمًا

سينمائيًا عما يسمى «بعملية عنتيبي».

إذن تسجيل البطولات والاعتزاز بالمعارك أمر بدهي لكل شعب وأمة بل إن الأمم أحيانًا تبحث عن حدث تافه جدًا لتصنع منه أسطورة بطولة تتغنى بها.

يقول العقيد شوقي حامد رئيس تحرير مجلة النصر – وهو مقاتل «إن الانطباع العام هو أن الأدباء لم يعبروا عن بطولات ١٩٧٣ التعبير الذي يرتفع إلى مستوى الحدث» قال العقيد شوقي حامد ذلك في مواجهة أدباء مصر – ونحن نوافقه تمامًا على هذا الرأي بل إن أحدًا من الأدباء لم يستطع أن يفند أو ينفي ذلك.

فلماذا كان التعبير متواضعًا أمام الحدث؟

فيمن يكمن العيب إذًا؟ هل في الحدث ذاته؟ لا أحد يستطيع أن يقول ذلك فمما لا شك فيه أن حرب «رمضان» كانت معركة بطولية نادرة على مستوى الإعداد والتجهيز والتخطيط والتمويه – والأداء الفردي والجماعي بل والتنسيق بين مختلف الأسلحة – على مستوى غرف العمليات وعلى مستوى الجيوش والفرق والألوية والكتائب والأفراد – بل وعلى مستوى توازن القوى وإحداث نتائج ضخمة جدًا بالقياس بالإمكانيات ومستوى التسليح. إن تلك المعركة تعد فخرًا هائلاً جدًا لا ينضب للتعبير الفني بكل مكوناته. بل إن التلاحم الشعبي والتفاعل بين الشعب وقواته المسلحة في حد ذاته كان من الروعة بمكان بحيث إنه يصلح لعشرات ومئات الأعمال والأشكال الفنية.

إذن العيب ليس في الحدث – قد يقول البعض إن العيب يكمن في المعوقات والقيود التي تقف في وجه الفن – ولكن متى كانت المعوقات والقيود سببًا في قتل الإبداع الفني – ألم يعبر المقاتلون أصعب مانع مائي – فلماذا لا يعبر الأدباء والفنانون مانع المعوقات؟

إذن ما هو التفسير الصحيح لتخلف الفن عن مواكبة معركة رمضان المجيدة – وفي الحقيقة فإن هناك مجموعة من الأسباب. لعل أولها وأخطرها يكمن في قطاع كبير من الفنانين الذين يمتلكون الأدوات الفنية ويسيطرون على المراكز الفنية بكل ما

فيها من إمكانيات – لقد تربى هؤلاء على مائدة الاستعمار وتشربوا ثقافته وكونوا أساليبهم الفنية والفكرية استنادًا إلى وجدان حضاري مختلف عن الوجدان الحضاري لأمتنا وبالتالي مقاتلينا – فلم يفهموا ولم يستوعبوا وعندما سمعوا اندهشوا وعندما رأوا لم يبصروا – لأنهم سمعوا ورأوا إنسانًا لم يعرفوه ولن يعرفوه.

لقد كان المقاتل يستند في حرب رمضان إلى تراثه ووجدانه الحقيقي – وكان شامخًا يقف على أرضيته الحضارية الصحيحة – فكيف يستطيع هؤلاء أن يعبروا عن ذلك الإنسان وهم لا يعرفون تلك الأرضية وينكرون ذلك الوجدان، هذه ناحية – والناحية الثانية أنهم نفسيًا لا يريدون لهذا الوجدان وتلك الأرضية أن تسود بل يريدون اقتلاع هذا الإنسان من تلك الأرضية ونزع ذلك الوجدان من داخله فكيف يمكن لهم أن يعبروا عن بطولات تؤكد تلك الأرضية وهذا الوجدان.

والناحية الثالثة أن حرب رمضان أثبتت أن الإنسان المسلم قادر على النصر وقادر على القتال وقادر على العطاء استنادًا إلى دينه، وأن تلك المعركة إذا ما تم ترجمتها فنيًا فإنها ستؤكد حقيقة التركيبة الحضارية لأمتنا وتؤكد أن تلك التركيبة ليست قادرة على تحقيق الانتصار فحسب بل هي أهم شروطه – وهم يعرفون أن مهمتهم وهم كتبة السلطة وسدنتها أن يحاولوا نسبة كل نصر إلى الزعيم مثلاً وأنه برغم تخلف شعبه كان متجاوزًا!! ووجدوا أن المادة اليومية للمعارك لا تسعفهم فسكتوا ولم ينطقوا.

وهم يعرفون أيضًا أن التركيز على بطولات الإنسان في تلك المعركة ستكون بمثابة عامل هام في إيقاظ الوعي الحضاري لأمتنا وهم بالعكس يريدون غير ذلك.

وهكذا وجدناهم بين غافل وساكت أو حاول قليل منهم أن يجاري الجو ثم يعود فيلتف فقدم أعمالاً أدبية حاولت أن تلصق بذلك الإنسان قيمًا لا يعرفها وأن تزرع في وجدانه أشياءً ينكرها – فجاءت أعمالهم غريبة وقاصرة وغير مفهومة.

والناحية الرابعة أن هناك من حاول أن يلقي بظلال من الشك حول كل عمل إيجابي لأمتنا وأن يزرع فينا اليأس دائمًا وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التي لا تريد لنا أبدًا أن تتكون لدينا شخصية الاعتزاز والثقة فتجاهلوا وخنقوا كل ما من شأنه

أن يحقق ذلك من ذكر للبطولات أو الجوانب الإيجابية في تاريخنا المعاصر بالذات – وكان ذلك التجاهل لبطولات رمضان محاولة للقول بأنه كان استثناء وأن القاعدة هي حرب ١٩٦٧ برغم أن الحقيقة المجردة تقول إن الإنسان الذي أعطى وانتصر في ١٩٧٣ كان قادرًا دائمًا على ذلك وأن حرب ١٩٦٧ لم يكن له فيها ذنب – بل كان الذنب يرجع إلى القيادة السياسية التي أمرت بالانسحاب ولم تسمح لهذا المقاتل أن يقاتل وفي المرة الوحيدة التي سمح له فيها بالقتال أثبت قدرته وكفاءته.

وهناك سبب آخر هو أنه بعد مرور أقل من أربعة أعوام على حرب ١٩٧٣ دخلت القيادة السياسية في لعبة السلام والتفاوض مما استلزم خلق نفسية أخرى ضرورية لهذا السلام وكان من الطبيعي أن تؤدي الأجواء الإعلامية التي صاحبت ذلك إلى إحداث نوع من الإحباط داخل الوجدان الفني الشريف.

ومع هذا ورغم كل هذا – ظهر فريق من الأدباء الشرفاء – الذين صنعتهم المعارك أو صنعهم الوجدان الشعبي المواكب للمعارك ولم تكن لهم مصلحة مع الدوائر الثقافية المشبوهة ولم يكونوا طرفًا في لعبة السياسة – قدموا الأعمال الفنية الشريفة والمستجيبة للحدث – وعلى هؤلاء وعلى آخرين مثلهم على الطريق أن يحققوا العبور الفني لتسجيل بطولات حرب رمضان كما سجل إخوة لهم العبور العسكري في رمضان. وبرغم مرور تلك الأعوام على حرب رمضان فإن الأمل معقود على هؤلاء وأولئك والله معهم.

يبقى علينا أن نوجه التحية هنا إلى الأديب المسلم د. نجيب الكيلاني – فقد كان أول من تفاعل مع الحدث وأصدر عقب المعركة روايته الجيدة «رمضان حبيبي» كما ينبغي أن نوجه التحية أيضًا إلى الأستاذ محمود المنسي المحرر الأدبي لمجلة النصر التي تصدرها القوات المسلحة المصرية وهو الذي يطالب دائمًا بالاهتمام بأدب معركة رمضان المجيدة كما أنه قدم من خلال المجلة عددًا من الأعمال والتحقيقات في هذا الإطار كما أن له بعض القصص المنشورة التي استلهمت روح رمضان. وعلى كل حال فإن الأعمال الأدبية التي خرجت من عباءة رمضان كانت قليلة جدًا ومنها رواية «الرفاعي» للأستاذ جمال الغيطاني وثلاث مجموعات قصصية أصدرتها الهيئة المصرية

للكتاب على أن أدب رمضان أوسع من هذا كثيرًا. ومن ناحية أخرى فإن الأشكال الفنية الأخرى كالرسم والمسرح والسينما كانت متخلفة جدًا في هذا الإطار.

قاتلنا - فانتصرنا.. نماذج لمعارك أخرى

لم تقتصر النماذج على حرب رمضان - لأن الأصل في الإنسان المصري أنه إذا قاتل انتصر - وأن الكوارث والهزائم التي لحقت بنا كانت بسبب تقصير القيادة السياسية أو إهمالها أو خيانتها، ومما يؤكد ذلك مجموعة من المعارك حدثت في أعقاب حرب ١٩٦٧. تلك الحرب المشؤومة التي لم يسمح فيها للإنسان المصري أن يقاتل - فلما قاتل انتصر.

- عقب حرب ١٩٦٧ - وبعدها بأقل من خمسة أيام - كانت قوة مصرية قد تشبثت بمواقعها شرق القناة في منطقة رأس العش ببورفؤاد، وقد حاولت القوات الصهيونية في إطار رغبتها في السيطرة على كل الضفة الشرقية للقناة أن تدمر تلك القوة الصغيرة أو أن تدفعها إلى الانسحاب إلى الضفة الغربية للقناة، وهكذا توالت الهجمات الصهيونية بالطائرات والقصف المدفعي وهجوم الدبابات - ولكن تلك القوة قاتلت ببسالة رغم الظروف النفسية وعدم تكافؤ القوى بين الطرفين واستطاعت أن تنزل بالقوات الصهيونية خسائر كبيرة - وتكررت عمليات الهجوم والصمود - وتمسكت القوة الصغيرة بمواقعها ولم تبرحها. وفي كل مرة كانت تنزل بالعدو خسائر فادحة - واضطر العدو في النهاية إلى إلغاء العملية - وهكذا أثبتت تلك القوة الصغيرة أن الإنسان المصري قادر رغم أشد الظروف قسوة على القتال والانتصار.

- في أعقاب حرب ١٩٦٧ - قام الطيران المصري - بقايا الطيران على الأصح - بإنزال ضربة جوية مكثفة وخطيرة بالقوات الصهيونية في سيناء وأوقع خسائر فادحة بها وعاد معظمها سالمًا - ولعل هذه المعركة في مثل هذا التوقيت والظروف تثبت أن العيب لم يكن في رجال الطيران المصري - طيارين وفنيين - بل كان في القيادة المتراخية.

- في عام ١٩٦٨ - بعد عام واحد من حرب ١٩٦٧ - استطاعت زوارق الطوربيد المصرية أن تدمر المدمرة الإسرائيلية «إيلات» - ولعل الفارق الهائل بين

قوة المدمرة وقوة زورق الطوربيد توضح إلى أي مدى يكون الإنسان المصري فـذا – هذا المقاتل الذي يستطيع أن يغرق مدمرة بقارب طوربيد لابد أنه جندي كفء شديد الكفاءة وجريء شديد الجرأة وشجاع شديد الشجاعة – وتلك الموقعة تثبت أن الإنسان أقوى من الآلة وأن المقاتل المسلم إذا قاتل انتصر.

خاتمة

لا نملك بعد هذا السرد – وتلك الوقائع إلا أن نؤكد عددًا من الحقائق التي لا يرقى إليها الشك. وهي:

- أن المقاتل المسلم كفء بطبيعته – وشجاع بفطرته – وقادر على النصر.

- أن الإنسان أقوى من الآلة – فمهما كانت كفاءة السلاح وتفوقه فإن الإنسان قادر بالصبر والشجاعة على تجاوز هذا التفوق وقادر على تحقيق الانتصار في كل الظروف وفي أسوأ الأحوال – فالأصل هو الإنسان – ولعل هذا يجعلنا نقرر بوضوح أن أمتنا قادرة على تجاوز كل التحديات مهما كانت كبيرة إذا امتلكت الإيمان والإرادة وبذلت كل ما في وسعها من جهد وطاقة.

- أن مدد الله تعالى حقيقة لا يرقى إليها الشك – وهو مدد مرتبط بشروط. أولها طاعة الله تعالى وثانيها بذل كل الجهد وأقصى الطاعة واستكمال أسباب القوة بقدر الإمكان.

- أن الحروب التي هُزمنا فيها – لا تصلح أن تكون معيارًا لتقييم الجندي والمقاتل المسلم – حيث إن القيادة السياسية لم تسمح في أي منها لهذا المقاتل أن يلتحم ويقاتل ويظهر كفاءته وشجاعته – وأنه حينما قاتل هذا الجندي في المعارك المختلفة أحرز النصر وبالتالي فإن الحقيقة الضخمة تقول:

إننا إذا قاتلنا انتصرنا

ولعل هذه الحقائق وغيرها تكون نبراسًا لأمتنا الإسلامية في صراعها مع الاستعمار الدولي – ولعل درس أفغانستان يؤكد هذه الحقائق.